

"ولنا في تلك المدينة المزدحمة ذكريات"

لأننا في مكان آخر

رشا خياط

ترجمة: محمد السيد



روايات مترجمة





لأننا في مكان آخر

لأننا في مكان آخر
تأليف: رشا خياط

ترجمة: محمد السيد

الطبعة الأولى: 2018
رقم الإيداع: 2018/1688
الترقيم الدولي: 9789773193942

الغلاف: آلاء هيكل
تحرير: إيزيس عاشور
مراجعة لغوية: خالد رجب عواد



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
ت 27921943 - 27954529 فاكس 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

Original Title: Weil wir längst woanders sind

تابعونا لمعرفة أحدث إصداراتنا






@alarabipd

رشا خياط

لأننا في مكان آخر

رواية من ألمانيا

ترجمة: محمد السيد





The translation of this work was supported by a grant from the Goethe-Institut.

بطاقة فهرسة

خياط، رشا

لأننا في مكان آخر: رواية من الأدب الألماني/ رشا خياط؛ ترجمة محمد السيد.

- القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، 2018.

ص؛ سم.

تدمك 9789773193942

1- القصص الألمانية

أ- السيد، محمد (مترجم)

ب- العنوان 833

إلى "حياة"

”والواقــع أني تعلَّمــتُ، وحيــاتي مليئــة إلى هــذا الحــد بتنــافر الأصوات، أن أُؤْثِر إلا أكون سويًّا تمامًا، وأن أظلَّ في غير مكاني“

إدوارد سعيد، "خارج المكان"

الثلج



ذات يوم، ظلت السماء تمطر ثلجًا طوال الليل فى هـدوءٍ تـامٍّ دون أن يـشعر أحـد بـذلك. تغيَّر حال الجو مثلما لم يفعل من قبل. أزحـتُ سـتارة نافـذة غرفـة المعيـشة كـما أفعـلُ كـل صباح، حينها اكتشفتُ ذلك الأمر.

لم نكن قبلها قد رأينا الثلج، عرفناه فقط من كتب الأطفـال وبـرامج التليفزيـون الألمـاني التـي اعتاد جدانا تسجيلها على أشرطة الفيديو، وإرسالها إلى بيتنا مصحوبة بكيكة الكريسماس في عطلة عيد الميلاد، أو شوكولاتة في عيد الفصح. عرفنا الثلج كذلك من خلال الصور، وأيضًا رأينا صورًا لأمي،

"باربرا"، في طفولتها وهي ترتدي ملابس التزحلق على الجليد وتقف على قطعتين خشبيتين ويساعدها أخوها على التزحلق فى طريقٍ مغطى بالجليد.

وها هو الثلج قد رأيناه في الشرفة، داخل قصريات الزرع ذات الورد المقطوع، وعلى الكرسي البلاستيك المهمَل في الشرفة منذ شهور.

وقفتُ ممسكًا بحبل الستارة، ومرتديًا ملابس النوم وقدماي عاريتان، ودققتُ النظر وأنا لا أصدق ما أراه. كانت السماء شاحبة اللون، وتكاثرت السحب حتى إنني ظننتُ أنها من ثقلها ستسقط وتلتصق بالوردة التي وضعتها "ليلى" داخل قصرية الزرع في الصيف. وقف طائر الكروان على حافة إحدى قصريات الزرع، وبدأ يبحث بمنقاره بين الورد المُقطَّع. سمعت خطوات "ليلى" من خلفي هادئة حتى وقفت بجانبي مرتدية قميص نومها وقدماها عاريتان. تمسك "ليلى" في يدها اليمنى دمية على شكل أرنب. صديقتها طوال سنوات عمرها السبع، كما تلازمها في سريرها في أثناء نومها، أمَّا يد "ليلى" اليسرى فقد أمسكت بيدي ورفعت رأسها لتنظر إليَّ وكأن أسئلة ما تدور برأسها.

أفلتُّ من يدي حبل الستارة وفتحت الباب، دخلنا معًا إلى الشرفة المغطاة بالثلج الناعم، حيث كان الهواء باردًا نشم منه رائحة المطر وعوادم السيارات. دخلنا ببطء وتركت أقدامنا أثرًا في طبقة الثلج الناعمة. أصابتني الرعشة في قدمي بسبب ذلك الثلج الأبيض. انحنيتُ لأتحسسه ولأتأكد من أنه يذوب بمجرد لمسه. وبينما ارتعشت يدا "ليلى" وساقاها وأخذت ترتجف، شعرتُ أنا بنعومة الثلج وهو يحتضن راحة يدي. فبسطت كامل أصابع يديَّ وقبضتهما ثانية،

وكررتها مرتين أو ثلاث مرات. أزحت كومة صغيرة من الثلج ونثرتها علـى الأرض حتـى غاصـت يداي فى بركة صغيرة من الماء.

اعتدلت ونطرت الماء عن أصابعي المبللة، وأحطت "ليلى" بذراعي. وضعت "ليلى" دميتهـا الأرنب جانبًا واستلقت على أرضية غرفة المعيشة فى وداعة وهي تفتت بين يـديها قطعـةً مـن الثلج حتى صارت ماءً بـين أصـابعها. وجففـت يـديها الـصغيرتين فى قمـيص نومهـا ذي اللـون الزهري في ابتهاج.

تحت الشرفة - في الشارع - يزيح رجل ما الثلج من الرصيف، وفي جراج السيارات الخـاص بالسوبر ماركت، تمسك سيدة بقطعة من الكرتون وتلمِّع بها الزجاج الأمامي لسيارتها.

همست "ليلى" بصوت يكاد لا يُسمع قائلة:

- هل بإمكاننا أن نأكل هذا الثلج؟

وأكملت قائلة:

- إن أبطال قصة "رونيا ابنة اللـص" Ronja Räubertochter يمـصون الـثلج أيـضًا. دعنـا نجرب مص الثلج يا "باسل".

كانت تنظر إليَّ بعينيها السوداوين الكبيرتين، لم يكـن شـعرها ممـشطًا، فبـدت في هيئتهـا وكأنها تشبه بطلة قصة "رونيا ابنة اللص".

أخذت بعض الثلج من المسند الخلفي للكرسي البلاستيك، وأعطيت "ليلى" نصفه في يدها. لعقنا بعضه أولًا في حذر، ثم وضعناه سريعًا في أفواهنا، وابتلعناه ونحن في حالة ارتباك لما نفعله. نشعر وكأننا نبتلع أقراصًا طبية أو كأننا نشرب دواء كحة. ظهرت على وجه "ليلى" علامات الضيق، أما أنا، فأخذت أمضغ على مهل وأنا أشعر بصوت الثلج يتفتت بين أسناني. لم يكن للثلج في أفواهنا أي مذاق. رأيت فى نظرات "ليلى" شعورًا بخيبة الأمل، وكذا كان شعوري أيضًا، وبخاصة أننا لا نعرف ما ينتظرنا من مصير بعد هذه الفعلة.

وفي داخل الشقة، سمعت خلفنا صوت باب الحمام يُغلق، وبعدها بقليل سمعنا صوت ماء الدش. فدفعتُ "ليلى" سريعًا إلى داخل غرفة المعيشة وأغلقت باب الشرفة.

في يوم آخر من الأسبوع نفسه، اصطحبنا جدانا إلى الحديقة العامة. قالت جدتي: "إن البحيرة مغطاة بالجليد الذي يُمكن أن نتزحلق عليه مع باقي أصدقاء المدرسة". لدى جدي حذاءان للتزحلق. وفى حين ملأت جدتي تُورمُس بالكاكاو ووضعت بعض المخبوزات في كيس بلاستيك، ركن جدي سيارته الحمراء في الشارع في طابور طويل من السيارات المركونة. توجهنا إلى الحديقة، وكان بعض الأطفال يلهون بكرات من الثلج، وآخرون يحملون أحذية التزحلق على أكتافهم.

أمسكت "ليلى" بقبعتها الصغيرة المصنوعة من الصوف والتي ظلت تسقط على الأرض مرارًا وتكرارًا بسبب شعرها الكثيف. أخذت جدتي القبعة منها ثم ربطت

خصلات شعرها، ووضعت القبعة عـلى رأسـها مجـددًا. بعـدها، نظـرت "لـيلى" إليَّ باسـتغراب وهي ترى كتفيَّ يرتعدان. على قبعتي المنقوشة باللون الفيروزي، التـي أعطتنـي إياهـا جـدتي منذ عدة أيام، شعار لأحد أندية كرة القدم لا أعرفه.

نزلتُ من السيارة ممسكًا فى كل يد بفردة حذاء التزحلق وأنظر إلى باقي الأطفـال. كانـت السماء تُمطر ثلجًا قبل الظهر. وبجوار باب الحديقة، كونت مجموعة من الفتيات رجل الـثلج. رأيتُ زملائي فى الفصل "باتريك" و"ستيفان" في المنطقة الخضراء بجوار البحيرة ومعهـم أحذيـة التزحلق ومضرب للهوكي أسود اللـون. دخـل الطفـلان منطقـة الجليـد، وبـدءا في التزحلـق في منحنيات دائرية حول مجموعة من الفتيات من الفصل الآخر، وكانا أيضًا يضربان كرات الثلج بمضرب الهوكي. وبينما كانا ينظران باتجاهنـا، نظـرتُ إلى الأرض وأقامـت بحـذاء البـوت جـبلًا صغيرًا من الثلج.

قالت جدتي:

- هيا يا أولاد! لتشاركا في التزحلق.

انحنت على ركبتيها لتربط حذاء "ليلى". لم تكن جدتي قد ارتدت بنطلونًـا في حياتهـا قـط، فهي تفضل ارتداء الفساتين سواء المخططة أو المنقوشة بالورود. لذلك ابتـلَّ جوربهـا الطويـل والجاكيت المصنوع من الصوف بالماء عندما جلست على ركبتيها، حتى ظهـرت بقعـة دائريـة من الماء على ركبتيها وجرت كالنهر إلى أسفل ساقيها حتى وصلت إلى داخل البوت.

أبعدت "ليلى" ساقها اليمنى قليلًا وهي تقول:

- لا أستطيع القيام بذلك.

ردت جدتي:

- الأمر بسيط، كل ما عليكما فعله هو أن تمشيا بشكل طبيعي، حتى الأطفال في الصف الأول يستطيعون القيام بذلك، انظرا إلى حجم المتعة التي يسببها التزحلق.

مدت "ليلى" ساقها إلى جدتها مجددًا في تردد لتُواصل ربط حذاء البوت لها.

كان حذائي ضيقًا عند مشط القدم، لذا شعرت بالألم عندما وقفت على طريق التزحلق.

قالت جدتي:

- الآن تبدوان كباقي الأطفال، أمسك بأختك يا "باسل" وابدآ في التزحلق، سننتظركما هنا، لا تقلقا، هيا.

أمسكت "ليلى" بيدي وبدأنا في التزحلق. سقطت "ليلى" على الأرض وجذبتني معها. وتشابك حذاؤها مع جاكيت التزحلق الطويل. كانت ركبتاي ترتعدان من البرد والخوف، فاتكأتُ على جذع شجرة واعتدلت وساعدت "ليلى" على الوقوف. تقدمت "ليلى" ثلاث خطوات صغيرة في حذر. تتطايرت حولنا كرات الثلج، وجرى كلب باتجاهي كاد يصطدم بي وهو يحمل عصا صغيرة في فمه وينظر إليَّ نظرة عتاب. ظلت "ليلى" ساكنة في مكانها وهي تنظر إليَّ وأنا

أتحرك ببطء. امتلأ الجليد أسفل مني بالثقوب، فجعل حذائي يتشابك بين قطع الثلوج، كما أن الكلب ظل ينظر إليَّ وهو يمر ببطء بجانبي وكأنه يريد أن يقول لي: "هيا، لقد فعلتَها، أنا أيضًا أستطيع التزحلق وأنا أحمل عصا في فمي في الوقت نفسه".

تنفست بعمق، لكن فاجئني الهواء البارد وشعرت بالألم في رئتي، لذا أغلقت شفتيَّ بقوة، وبدأت أقلد حركة باقي الأطفال في التزحلق. أتجه بالجزء العلوي من جسمي إلى الأمام، وأفرد يديَّ جانبًا. وقف الكلب بجوار "ليلى" وظلا ينظران إليَّ.

سمعت صوت جدي من خلفي وهو يقول:

- لا تقفا هكذا يا صغيريَّ، تعالي يا زوجتي كي نريهما كيف يتزحلق المحترفون على الجليد.

لم تستجب جدتي لنداء جدي، فأمسكها من يدها وجذبها على الجليد واضعًا يده اليمنى على خصرها وبدأ يتزحلق مؤديًا حركات راقصة.

قالت جدتي ضاحكةً:

- لا تكن مجنونًا.

كانــت جــدتي قليلــة الــضحك. تحــرَّك الاثنــان معًــا عــلى الجليــد، وكانــا لا يرتــديان أحذية التزحلق، ولكن فقط حذاء البوت الشتوي، تحرك جدي قليلًا ثم قفز وهو يغني أغنيـة قديمة.

تجمع عددٌ الناس حولهم، ثـم اسـتمر عـددهم في التزايُـد. أخـذوا يـصفقون ويـضحكون. تزحلق جدي على الجليد بسرعة وهو يلفُّ جـدتي حولـه. تـرك الكلـب مكانـه بجـوار "لـيلى" وذهب حيث جدَّاي وبدأ يتشممهما. تمايلت جدتي بجسدها إلى الخلف والنـاس مـن حـولهم يرقصون مع الإيقاع، وما زالت بقعة الماء واضحة على ركبتيها.

أمسكت "ليلى" بيدي وضحكت وخلعت قبعتها بيدها الأخرى وألقتها على الأرض، وهزت خصلات شعرها كما تفعل جدتي ودنـدنت مـع الإيقـاع بـصوت خافـت وهـي تتمايـل ناسـيةً الحذاء الصعب الذي ترتديه في قدميها.

عندما عُدنا مرة أخرى إلى السيارة، عادت السماء لتمطر ثلجًا مـرة أخـرى. بـدأت الغيـوم تتزايد فى السماء، واشتعلت المصابيح في الحديقة وأضـاءت الجليـد بنورهـا ذي اللـون الأصـفر الرملي.

رآني "ستيفان" و"باتريك" فانطلقا نحوي قائلين:

- في المرة القادمة، علينا أن نلعب الهوكي، فأبونا لديه العديد من المضارب في الجراج.

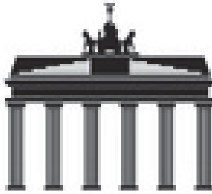
فأومأت برأسي وودعتهما ممسكًا بحذاء التزحلق الخاص بي في يدي.

جاءت "ليلى" ممسكة بيد جدتي، في حين ظَلَّ جدي يغني وهو يفتح السيارة. نظرت "ليلى" إلى السماء وفتحت فمها محاولة التقاط بعض الثلج في فمها. مسحتُ على رأسها ذي الشعر الأسود الذي علقت به بعض نُدفات الثلج وأنا أقول:

- هيا اصعدي سريعًا إلى السيارة حتى لا تصابي بالبرد.

فصعدت "ليلى" إلى السيارة، وجلست على الكرسي الخلفي. وفي الطريق، وضعت رأسها المُبلَّل على كتفي وهي تقول:

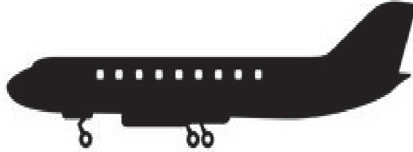
- هل انتهى الأمر وسنعود إلى البيت مجددًا يا "باسل"؟



- هل تتذكرين يا "ليلى"؟

- نعم، أتذكر يا أخي.

الرحيل



كانت المناشف الورقية قد نفدت، فمسحتُ يديَّ المبللتين في قميصي ونظرت فى المرآة المتكاثف عليها بخار الماء. لاحظت أنني كان يجب عليَّ أن أحلق ذقني. تحسستُ ذقني الممتلئ بالشعر بأصابعي. رأيت صورتي في المرآة. أبدو متعَبًا وأكبر سنًّا مما تخيلتُ نفسي، ربما يكون الضوء الساطع هو السبب. دخل أحدهم إلى الحمام مرتديًا بدلة. يبدو أنه رجل أعمال. ترك الباب مفتوحًا لي لكي أخرج. فكرتُ فى أن أدخن سيجارة أخرى بسرعة، ولكن منطقة التدخين كانت على الجانب الآخر من صالة المطار.

وفي منطقة الانتظار، وقف في طابور أمام البوابة آخر ركاب سيصعدون الطائرة. في تلك اللحظة، فكرتُ في تأجيل السفر، فما زال هناك مُتَّسع من

الوقت قبل موعد الزفاف. يمكنني أن أذهب إلى خارج المطار وأن أستقل القطار إلى هامبورج، ثم أذهب إلى العمل غدًا أو ربما أعود مرة أخرى إلى الجامعة. حينها ستكون حقيبتي قد وصلت القاهرة ومنها إلى جدة، ثم ستستقر فوق سير الحقائب في المطار حتى يكتشف أحدهم الأمر فيأخذها إلى غرفة التخزين محاولًا كشف هوية صاحبها. وفي الغالب سيفتحون الحقيبة ويأخذون ما فيها كالحذاء الرياضي والتي شيرت والبدلة التي أصرت "باربرا" أن آخذها معي.

وفي تلك اللحظة، نادى أحد العاملين في المطار مرتديًا كرافتة بوليستر رفيعة سوداء:

- المتجهون إلى القاهرة، هل ما زال هنا مَن يريد التوجه إلى القاهرة؟

أخرجت تذكرة الطيران من جيبي، وسرتُ بخطوات سريعة ناحيته وأعطيته جواز السفر والتذكرة، فوضعهما على الـ"سكانر" ثم نظر إليَّ وعلى فمه ابتسامة مصطنعة قائلًا:

- رحلة سعيدة!

كنت آخر من دخل الطائرة. أغلقوا الباب وحيتني المضيفة الواقفة على باب كابينة الطيار في ودٍّ وكأنني لم أتسبب في تأخر الإقلاع، ثم أوصلتني إلى الكرسي الخاص بي في الدرجة الأولى. أقاربي في جدة هم الذين حجزوا لي تذكرة الطائرة ورتبوا كل شيء. حيث تخيلوا أن سفري إليهم على الدرجة الاقتصادية سيكون سخيفًا، وهم بذلك يريدون مني أن أكون جيدًا معهم، إلا أنني لن أعطيهم الفرصة لذلك.

كان الكرسي بجواري فارغًا، فوضعت فوقه البطانية الصوف والمخدات البيضاء وحقيبة صغيرة عليها رمز شركة الطيران، ثم ربطت حزام الأمان ونظرت من النافذة. كانت الساعة الثانية والربع والسماء تمطر. رأيت الملّاح الجوي الذي يرتدي جاكيتًا أصفر فسفوريًّا وهو يمر بعربته الصغيرة بجوار الطائرة.

أتَّجهُ الآن إلى بلد أحتجُّ كل بضعة أسابيع على الأوضاع السياسية فيها على الإنترنت، وهو نفس ما يفعله نحو تسعين بالمئة من جيراني في حي "سانت باولي" أيضًا. لن يسافر أحد من هؤلاء الجيران أبدًا إلى تلك الدولة حتى لو أمكنهم ذلك، فما السبب الذي قد يدفعهم للسفر إلى هناك؟ فليس هناك ما يدفعهم للسفر إليها. فكرت في أن "ليلى" هناك لن يمكنها أن تقود سيارتها، بل سيكون هناك سائق خاص بها. ولن تتمكن من الذهاب إلى السينما التي تحبها؛ لأنه لا توجد أي سينما فى تلك الدولة. يؤسفني كثيرًا عدم وجود سينما هناك.

كانت كل تلك الأفكار التي راودتني في تلك اللحظة بالغة الصعوبة عليَّ. فعندما أفكر في جدة، أتذكر الرمان والخبز العربي اللذين كانوا يرسلونهما في الماضي إلينا في ألمانيا.

وزَّعت المضيفات مشروبات ومجلات ومناديل جافة ومبللة على ركاب الدرجة الأولى، ودخلوا إلى الدرجة الاقتصادية.

أشاهد على شاشة الكرسي أمامي شريط فيديو يشرح تعليمات الأمان. بدأت الطائرة تتحرك. انتظرت لحظة الانطلاق حتى أتمدد في الكرسي. في تلك اللحظة، حاولت أن أفكر في "ليلى" وفي أبي، أو يمكن القول إنني حاولت أن

أنساها وأفكر في قصاري الزرع التى ربما ستموت عطشًا حتى أعود إليها. وفي اللحظة التي ظهر فيها أمامي على الشاشة كارتون يُصوِّر رجلًا يمسك طوق نجاة ويضع المنفاخ في فمه. تذكرت موسيقى كارتون "كابتن ماجد" الذي كنا نشاهده في صغرنا في غرفة المعيشة المكيفة. كنت أنا و"ليلى" حينها نتحدث معًا عن كل حلقة.

فككتُ حزام الكرسي، ورأيت الرجل الجالس في الناحية الأخرى من الممر يخلع حذاءه ويرتدي قناع النوم، ثم يرجع بظهر الكرسي إلى الخلف. لم أكن أعلم هل أنا مُرتَبِك أم أنني فقط متعَب من الأسابيع الأخيرة والمحادثات التليفونية مع "باربرا" التى طرحت عليَّ أسئلة كان من الأفضل أن تطرحها على ابنتها. فكرت في الذهاب إلى الحمام لأرش بعض الماء على وجهي، لكن المضيفات كن يوزعن قائمة الطعام لتناول الغداء.

قالت المضيفة باللغة الإنجليزية:

- يمكنكم الاختيار بين اللحم البقري أو السمك أو الوجبات النباتية، ويُقدم معها السلطات والفاكهة. أتمنى رحلة سعيدة للسادة الركاب العرب والأجانب.

كانت معدتي تقرقر جوعًا، فلم أكن قد تناولت طعام الإفطار على الرغم من أن "باربرا" لا يمكنها أن تتحمل خروجي من البيت دون تناول الإفطار، فهكذا كان الأمر دائمًا معها ولا يهمها كم أصبح عمرنا أو منذ متى ونحن نعيش بعيدًا عنها، فما يهمها هو ألا نخرج من المنزل دون تناول الإفطار حتى ولو كانت

هي تفعل غير ذلك، فهي تشرب القهوة وتدخِّنُ سيجارتين فقط، أمَّا الأطفال فيجب أن يتناولوا إفطارهم.

كانت "باربرا" قد قابلتني في اليوم السابق في محطة القطارات. من المؤكد أنه كان يمكنني السفر بالطائرة مباشرة من هامبورج بدلًا من أن أطيل المسافة بلا جدوى وأضيع الوقت، ولكن جرى العرف على أننا نبدأ سفرنا الطويل من "دوسلدورف" حتى نقضي معها الليلة السابقة للسفر.

ولذلك كنت قد طلبتُ من ابن عمي أن يحجز لي التذكرة من "دوسلدورف" على أمل أن "باربرا" ربما تريد أن تعطيني شيئًا لـ"ليلى" كرسالة مثلًا أو أن تقرر في آخر لحظة أن ترافقني إليها. تفكير أحمق لأن شخصية "باربرا" لا تحب المفاجآت.

ظللنا في اليوم السابق أنا و"باربرا" جالسين على مائدة المطبخ بعد الظهر وحتى وقت متأخر نشرب القهوة وندخن السجائر. كانت "باربرا" تدخن بشراهة وهي تقول لي إن ضغط العمل في المستشفى هو الذي يمنعها من مرافقتي.



ننادي أنا و"ليلى" دائمًا "باربرا" باسمها الأول، وتسميها "ليلى" أيضًا بـ"الأم" و"الناظرة" و"سيدة المنزل". تبدو "باربرا" بملامح وجهها الصارمة الجادة وأصابعها الطويلة أصغر من سنوات عمرها السبع والخمسين، فهي تعتني بأظفارها دائمًا، وشعرها قصير ومهندم، كما تلون حاجبيها دائمًا عند

الكوافير وتحددهما، ولذا يُعجب بها الأطباء في المستشفى الذي تعمل به، فهي نشيطة ويمكن الاعتماد عليها ولا تصرِّح برأيها فى أي أمر وتدافع دائمًا عن الممرضين والممرضات الصغار. كانت "ليلى" تتمنى لو أنها تربت مع هذه السيدة التي دائمًا ما تعلم واجباتها وما لها وما عليها كما أنها اجتماعية مع الآخرين.

أمامنا على مائدة المطبخ مئات القطع المفككة من لعبة البازل، قطع زرقاء وخضراء ورمادية وحمراء، كل قطعة لها حواف ورؤوس وأجزاء بارزة. كانت أضلع البازل قد تم تكوينها. كان مرسومًا على غطاء الصندوق صورة "تاج محل" وخلفه سماء زرقاء مع آبار مهجورة كلها مرسومة بالفوتوشوب.

بدأنا نضع قطع اللعبة بجوار بعضها البعض دون أن نتحدث، ونبحث عن قطع تكمل صورة السماء وصورة الأبواب والشبابيك. وأعجبني الأمر لأننا لم نكن في حاجة للتحدث.

في أثناء اللعب، سألتني "باربرا":

- هل أرسلت إثبات القيد إلى التأمين؟

فأومأتُ برأسي أن نعم، فأكملت هي صورة السحاب ونظرت إليَّ نظرة توحي بأنها لا تصدقني. وبالطبع كانت محقة.

وقفتُ لأنني لا أعرف ما ينبغي قوله واتجهت إلى الثلاجة وتناولت الكوكاكولا، وسألتها:

- هل ترغبين في تناول شيء؟

فهزت رأسها أن لا.

هناك، على باب الثلاجة، صور لنا في طفولتنا مثبتة بقطع مغناطيس ملونة اشترتها "باربرا" في أثناء رحلاتها. كما توجد عدة صورٍ لفنار ولطائر نورس ولقصر "نويشفانشتاين" ثبتناهم أنـا و"ليلى" على الباب. في ذلك اليوم، جلسنا في حديقة جدينا نأكـل "الوافـل"، وأخرجـت "لـيلى" حينها لسانها الذي تحول إلى اللون الأحمر من أثر الكريز.

جلستُ بجانب "باربرا" أنظر إلى صور طفولتنا. حاولت أن أتذكر طفولتي، مـا الـذي كـان يدور برأسي وماذا كان يريد هذا الطفل الصغير أن يقول لتلـك الفتـاة التـى تأكـل الكريـز، إلا أنني لم أستطع التذكر.

بعدها قلت لـ"باربرا" إن رحلة الطيران ستكون غدًا في الثانية بعد الظهـر. حينئـذ، أصـبح الصمت أكثر إزعاجًا، ولكن كان يجب عـليَّ أن أفـتح هـذا الموضـوع الـذي لم نتطـرق إليـه في حديثنا.

قلت لـ"باربرا":

- ما زال بإمكانكِ حجز تذكرة والسفر معي.

فأجابت:

- لا يمكنني السفر، ولن يعطوني إجازة.

ثم أمسكت بصورة المئذنة وأخذتْ نفسًا من سيجارتها.

فقلت لها:

- لا أظنُّ أن أحدًا سيعترض على حصولكِ على إجازة لمدة أسبوع للسفر لحضور فرح ابنتكِ.

فردت "باربرا":

- إن أختك لم تعد تتصرف بعقلانية يا "باسل".

عدتُ إلى المائدة وأحطتها بذراعي لأهدئ من هذا الانفعال الذي بدا عليها. إلا أنها لم ترحب بهذا التصرف، فرفعت ذراعي عنها وقلت:

- أظنُّ أنها ستسعد بوجود أمها معها في فرحها.

فردت "باربرا":

- أتظنُّ أنها ستهتم بذلك؟ إن هذا الأمر أيضًا سيتم على حسب مزاجها، تمامًا كما فعلت عندما سافرت منذ أكثر من عامين كاملين، ولم نعلم شيئًا عنها. ثم فجأة، أصبحت تريد أن تتزوج رجلًا غريبًا في بلدٍ لا يسمح لها بفعل شيء. إنها تتصرف بجنون وأنا لا أشجع ذلك.

فقلت لها غاضبًا:

- إنها تقول إن هذا البلد موطنها.

قالت "باربرا":

- هذه حماقة، موطنها هنا أو في هامبورج، ما الذي تريده من ذلك البلد الغريب! إنها لا تعرف أحدًا هناك. وكالعادة، ستفكر كما يحلو لها وتفرض إرادتها، وأنا لا أعترض على ذلك، لكني لن أشجعها عليه.

بدت عروق رقبة "باربرا" منتفخة من الضيق. كانت هذه هي المرة الأولى التي ألاحظ فيها وجود تجاعيد حول عينيها.

أصدرت غسالة الأطباق صوتًا، فوقفت "باربرا" وفتحت باب الغسالة فخرج منه بعض البخار، ثم أخرجت الأواني وفرزتها وقالت:

- يا له من منظف سيئ، انظر إلى السكين، إن كل شيء ما زال متسخًا.

تقوم "باربرا" دائمًا بتنظيف البيت وتغيير موضع الأثاث فيه باستمرار. أتذكر عندما ماتت جدتي قبل أعوام قليلة، لفّت "باربرا" بعض أدوات المائدة في مناديل بعد الجنازة، وقسَّمت الجبنة إلى قطع، ثم حملت الصواني من غرفة إلى غرفة أخرى. فبينما كانت غرفة المعيشة دافئة، كان جو البدروم المخصص للغسيل باردًا. وكانت تقول إن المكان لا يكفي لوضع قطعة الجبنة كاملة دون تقطيع.



كنت أنا و"ليلى" جالسين في يوم جنازة جدتي على الكنبة في صمت نشاهد مباراة كرة قدم. كانت "ليلى" تبكي، لكن "باربرا" لم تهتم ببكائها.

فقالت "ليلى" لي وهي ممسكة بفنجان الشاي:

- حتى إذا أغلقت الباب على نفسك، ستشعر بعدم الأمان وسط الضباب الذي يحيط بك، إنها ما زالت تتحرك كثيرًا يا "باسل"، فلماذا لا تجلس؟

فأجبتها:

- إنها تشغل نفسها عندما يزيد الحِمل عن طاقتها، كلنا نعرف ذلك.



تذكرت كل ذلك عندما رأيت "باربرا" وهي تلمع السكين باستخدام فوطة المائدة، ثم تضعها في علبة أدوات المائدة.

قلت لها:

- استريحي يا أمي.

فردت:

- يجب أن أنظفها أولًا.

- لدينا الوقت الكافي لذلك. يمكنني أن أفعل أنا ذلك.

ظلت تنظف الأواني ثم جلست إلى المائدة. غطى البخار عدسات نظارتها، فلم أستطع رؤية عينيها بوضوح. أخذت سيجارة من العلبة، واتكأت على الكرسي وأشعلتها ثم سحبت نفسين. قالت:

- ابني ذو الواحد والثلاثين عامًا لم ينتهِ من تعليمه بعد ويعمل في بار صغير، وابنتي أنهت تدريبًا عمليًّا في بيع الكتب قبل تخرجها وأنفقت كل ميراثها، وتريد بعد مرور واحد وعشرين عامًا أن تعود إلى بلدٍ لا تعرفها لتتزوج من لا تعرفه أيضًا. هل تعتقد يا "باسل" أنني أريد مقابلة هؤلاء الناس لأخبرهم عمَّا يدور بداخلي؟ ما الخطأ الذي فعلته لأولادي حتى تفكر ابنتي في العودة إلى أحضان أسرة غريبة عنها؟ ما الخطأ الذي فعلته يا "باسل" لتشعروا أن الحياة صعبة هنا؟ هل يمكنك أن تخبرني بخطئي؟ لا، لن أسافر معك لأشارك في تلك الحماقة.



أخرجني من تفكيري صوت داخل الطائرة وهو يقول:

- السيدات والسادة، سوف نبدأ الهبوط إلى مطار القاهرة بعد دقائق معدودة.

ربما أكون قد نمتُ لبعض الوقت، كانت الساعة السابعة مساءً بتوقيت مصر، والشمس في طريقها للغروب. اعتدلت في جلستي ونظرت من النافذة، رأيت من تحتي بيوتًا كثيرةً تشبه علب الأحذية الصغيرة ذات اللون البني. تبدو تلك البيوت كأنها تبعد مئات الكيلومترات. تزداد قوة المصابيح المضاءة داخل

الطائرة في ظل غياب ضوء الشمس وزيادة الظلام، حيث يلوح في الأفق خط أحمر رفيع من النور يبدو وكأنه مرسوم.

لنا عدة ذكريات في تلك المدينة المزدحمة؛ لأنها المكان الذي احتضن العام الأول من رحلة "ليلى" خارج هامبورج، حيث ظلت عامًا كاملًا تُعلِّم اللغة الألمانية وتتعلم العربية، وكانت ترسل لي عددًا لا حصر له من الصور والإيميلات التي رددت على عدد قليل منها بمجرد أن قرأتُها؛ لأنني لم يكن لديَّ ما أحكيه لها. أردت مرتين أن أزورها، ولكنني في كل مرة كنت أتراجع.

أحسستُ بضغط الهواء داخل أذني، وبدأت المدينة تقترب أكثر وأكثر، واشتد نور ممر الهبوط. أخرج الطيار العجلات التي أصدرت صوتًا عاليًا، واستمر الوضع هكذا إلى أن استقرت الطائرة على الأرض.



كانت الممرات بين صالات المطار مضاءة بشدة. تعرقلت إحدى عجلات ترولي الحقائب. كان هناك صوت امرأة عربية تقول شيئًا ما عبر مكبر الصوت، ربما تقول إنه يجب علينا الانتباه لشنط اليد. تبدو اللغة العربية غريبة، حيث إنني لم أستمع لمثل هذه الطريقة السلسة من نطق الكلمات من قبل، وكنت سعيدًا عندما فهمت جزءًا من الكلام وهو "حضرات المسافرين"، إلا أنني لم أستطع فهم أكثر من ذلك وكنت محرجًا.

تشير اللوحة الخضراء المعلقة بجانب لوحة السفر إلى مكان الحمام والمصلى ومنطقة التدخين، فتحركت وفقًا لما هو مكتوب على اللوحة. وجدت أن منطقة التدخين عبارة عن كابينة زجاجية تتسع لستة أشخاص على الأكثر، إلا أن بداخلها يقف أكثر من عشرة أشخاص، ووجدت نفسي داخلها وسط غيوم من الدخان. وأحسست وكأن هؤلاء المدخنين يشعرون بالإحراج لكونهم مدخنين. وقبل أن أستدير مبتعدًا عن هذا المكان، ناولني أحدهم علبة سجائره المفتوحة، فشكرته وتناولت سيجارة من علبته واتكأت على جدار الكابينة الزجاجية.

تحدث معي هذا الرجل باللغة العربية بودٍّ وأشار بيده اليمنى وضحك بصوت عالٍ، حتى لاحظ عدم فهمي لحديثه فقال بالإنجليزية:

- أسف جدًّا، ظننت أنكُ مصري فأنت تشبه العرب، ما جنسيتك؟

فأجبته بالإنجليزية أيضًا:

- من ألمانيا.

وأخذتً نفسًا من السيجارة وشعرت برغبة في الكُحة.

فمد لي يده وهو يعرفني بنفسه قائلًا:

- حقًّا؟ مرحبًا بك في مصر، أنا "سالم حسن"، سعدت بلقائك يا أخي.

فرددت قائلًا:

- "باسل سيد".

فاندهش الرجل وقال بالإنجليزية:

- "باسل سيد"! إذًا أنت مصري ولست ألمانيًّا، هكذا يظهر من اسمك.

فأجبته بالإنجليزية مبررًا:

- إن أبي عربي، إلا أنني أعيش منذ زمن بعيد في ألمانيا.

بدت إجابتي المختصرة بالإنجليزية مبررًا كافيًا كما لو قلتها بالألمانية.

فقال الرجل:

- عظيم، ألا تتحدث العربية مطلقًا؟

فهززتُ رأسي بلا. لم أكن أرغب في إظهار نقطة ضعفي في التحدث بالعربية.

فقال:

- إنني أعمل في الولايات المتحدة وأتحدث الإنجليزية باستمرار حتى مع أصدقائي.

صمت قليلًا، ثم سألني:

- لماذا جئتَ إلى القاهرة يا "باسل"؟

كان انفتاح هذا الرجل ثقيلًا على قلبي، فقد كنت أتمنى ألا أضطر للحديث مع أحد حتى أصل إلى نهاية رحلتي في جَدة، وحتى أُقصِّر الحديث معه قلت له إن رحلتي إلى جدة ستبدأ بعد قليل. فقال الرجل:

- ماذا؟ جدة! لماذا ستذهب هناك؟ هل ستذهب للعمل؟

فكرت قليلًا أن أجيب بنعم على سؤاله، لكنني لم تكن لديَّ الرغبة في تلك اللحظة للكذب، فأجبته:

- إنني مدعو إلى حفل زفاف هناك.

فقال الرجل:

- عظيم! حفل زفاف سعودي، ابن عمي تزوج هناك أيضًا، يا له من أمر عظيم. إلا أن ابن عمي في الرياض، أظنُّ أن جدة أفضل بكثير وأكثر انفتاحًا، أتعلم، أنا لم أذهب إلى هناك مطلقًا، وأنت؟

فهززت كتفي وقلت:

- هذه هي المرة الأولى.

دهس الرجل سيجارته وفتش داخل حقيبة الكتف الخاصة به، ثم قال لي:

- اسمع، عليَّ أن أغادر لأن أبي ينتظرني بالخارج ليأخذني من المطار. ها هو الكارت الخاص بي، اتصل بي إذا احتجت لأي شيء، وإذا جئتَ إلى القاهرة

مرة أخرى، فسأصحبك في زيارة لرؤيتها، ويمكننا أيضًا تناول الويسكي معًا. سعيد بمقابلتك يا "باسل"، مع السلامة.

ينتظر ركاب آخرون أمام البوابة، حيث يلتفُّ العديد من الرجال في ملابس الحج البيضاء ولديهم لحية سوداء ويرتدون صنادل في أرجلهم. يجلس هؤلاء في مجموعات ومعهم زوجاتهم وأولادهم. تلتفُ زوجاتهم في رداء أبيض طويل وترتدين الحجاب. يجلس هؤلاء بجانب شنط للتسوق من السوق الحرة وبعضهم يقلب صفحات كتاب صغير وآخرون يستخدمون تليفوناتهم. في حين يرتدي آخرون الثوب التقليدي وترتدي زوجاتهم العباءة.

أدركتُ أن ملابسي الغربية تبدو غير مألوفة بالنسبة لهم، فوضعت يدي في جيب البنطلون وجلست بعيدًا قليلًا عن باقي المسافرين. يرتدي الأطفال ملابس ملونة ويمرون من أمامي فينظرون إليَّ نظرة ممتلئة بالفضول والحرج في الوقت نفسه.

أخرجت تليفوني الـ"آيفون" من جيب البنطلون وفتحت "لعبة الذاكرة" Memoryspiel. ظهرت على شاشة التليفون صورٌ لطائر وردي اللون وسيارة زرقاء وورود وحيوانات، فضغطت على كل صورتين متشابهتين، ولعبت ثلاث جولات أو أربعًا مستمرة دون أن أرفع نظري. كان الناس من حولي يتحدثون مع بعضهم بعضًا وينادون بعضهم البعض ويتضاحكون. مرت أمامي امرأتان صغيرتان في عمر "ليلى" وكانتا تقهقهان، كما أصدرت أحذيتهما ذات الكعب العالي صوتًا وهما تمشيان على الرخام، فرفعت رأسي من التليفون. كانت

الفتاتان ترتديان بنطلوني جينز أسـودين ضـيقين وبلـوزتين حريـرتين مزهـرتين وحجابًـا مُلوَّنًـا، وتحملان على ذراعيهما شنطًا كبيرة تبدو غالية. مرت الفتاتان أمام الحجـاج بخطـوات واثقـة، والحجاج يتتبعونهم بأنظارهم حتى جلستا في مكان الانتظار.

لعبت جولة جديدة حتى كادت بطارية تليفوني الـ"آيفون" أن تفرغ. نادى أحـدهم عـلى رحلتي فهممتُ أن أغلق تليفوني فوجدت رسالة قادمة إليَّ تقول:

"رحلة سعيدة يا ابن عمي، سأكون في انتظارك هناك، أراك قريبًا".



جدة



لم تكن المدينة شبيهة بصورتها في ذاكرتي، تلك الصورة التي أحلم بها أحيانًا – مرة أو مرتين في العام - استقرت في مخيلتي منذ أن غادرت المدينة آخر مرة منذ أكثر من عشرين عامًا.

حينها كان الطريق إلى المطار ما زال بمثابة طريق "رالي" طويل المسافة وسط الصحراء. وكان هذا الطريق الأسفلتي الغريب الذي لا نهاية له يبدو كشريان أزرق يمتد وسط صحراء قاحلة لا نهاية لها، لا نرى منها إلا لوحات إعلانية وبين الحين والآخر بيوت أو أماكن بناء.

أما الآن فلم يعد الطريق مليئًا بالمغامرات. أصبح هناك طريق جديد يتكون من ثماني حارات ومُراقبًا بالقمر الصناعي، فقد حلت المدينة محل الصحراء.

على الرغم من حلول ظلام الليل، فإن الأضواء كانت ساطعة في كل مكان وتنعكس في واجهات المباني الزجاجية والفولاذية. أرى مباني سكنية غالية وسيارات فارهة بجانبنا وعلى الجهة المقابلة من الطريق. كانت "ليلى" قد كتبت لي قبل ذلك أن كل مسجد يعلوه مركزان تجاريان أو ثلاثة، ولم أستطع تخيُّل ذلك حتى رأيته بنفسي. شعرت بأنني أسير في سوق عملاقة تُشبه السوق السنوية في ألمانيا بأضواء مصابيحه الساطعة والملونة والعديد من الماركات التجارية ولافتات الدعاية مثل لوجو مطاعم "برجر كينج" ذي اللونين الأحمر والأزرق، ولوجو متجر "هوجو بوس" ذي اللونين الأبيض والأسود، ولوجو ماركة الموتسيكلات "هارلي دافيدسون" برتقالي اللون، وأيضًا لوجو مطاعم "تشيليز" ذي اللونين الأخضر والأحمر. كان هناك ازدحام شديد وصخب وأصوات كلاكسات السيارات وأصوات شتائم تنطلق من داخل السيارات ذات النوافذ المفتوحة وأيضًا أصوات أغاني بوب عربية.

تصطفُّ العديد من السيارات في طابور أمام محلات "دانكن دوناتس" و"كنتاكي "كما يتكئ بعض الشباب على نوافذ سياراتهم لاستلام طلباتهم في شنط بلاستيكية كبيرة أو أكواب بلاستيكية، وبعضهم يُجلس أطفاله الصغار على حِجره وهم يلعبون في دركسيون السيارة. مرت ثلاث ساعات منذ وصولي

نسيت خلالها شكل شعر النساء، كل ما يظهر هو الحجاب في كل مكـان حتـى أنهـن تـشبهن محاربي النينجا.

قال لي "عمر" بالإنجليزية:

- هل تذكرت شيئًا، أم أن كل شيء قد تغير؟

فقلت له:

- يمكنك أن تحدثني بالعربية، فما زلت أتذكرها.

فضحك "عمر" وقال لي:

- لا، إن لغتك سيئة للغاية، وكأنك من برا سأجعلك تتذكرها خلال الأيام القادمة.

استقبلني "عمر" في المطار. كنت قد سألت نفسي قبلها بأيام كيف سيكون لقائي بـه. فقـد قضينا معًا الكثير من الوقت في طفولتنا على الرغم من أنه أكبر مني بعشر سـنوات. اعتـادَ أن يأخذني أنا و"ليلى" إلى حمام السباحة الخاص بأسرته، وكثيرًا ما لعبنا كرة القدم معًـا في الفنـاء. وها هو قد أصبح يبلغ من العمر واحدًا وأربعين عامًا ولديه كِـرش كبـيرة - لـو رأتـه "بـاربرا" لقالت عنه إنه مثال لهيئة الرجل السعودي - تزوج ثـلاث مـرات وطلّـق في أول مـرتين ولديـه اثنان من الأبناء في سن المراهقة. كنت قد رأيت صورًا له عـلى "الفيـسبوك" في حفـلات زفافـه ورحلاته وصورًا لأبنائه الذين تبدو عليهم السمنة وينظرون إلى الكاميرا وهم يشيرون بأيـديهم بعلامة النصر.

سهَّل "عمر" عليَّ عملية المرور من التفتيش في الجوازات. حضنني في المطار وضربني في جانبي مداعبًا وضحك وقال:

- يا باشا ألا يعطونك أكل في ألمانيا؟! أنت تشبه خلة الأسنان، هيا نذهب سريعًا كي تأكل.

وأخذ جواز السفر من يدي ووضع بين صفحاته عملة ورقية وأخذني عبر الصالة الجديدة المضيئة وقال:

- لديَّ صديق يعمل في الاستقبال. هيا نذهب إليه في مكتبه ليختم لك جواز السفر.

كان الحجاج ذوو الرداء الأبيض المسافرون معي من القاهرة يتجمعون عند الجوازات في ضوضاء ليأخذوا المصل الواقي، فقال "عمر":

- دائمًا الشيء نفسه، إنهم لا يستطيعون إنهاء إجراءات الدخول إلى الأراضي المقدسة سريعًا، ليتهم يعلمون ما ينتظرهم هنا.

خُتم جواز سفري في مكتب أحد معارف "عمر" سريعًا ودون أي مضايقات. ساد جوٌّ من الاحترام بينهما.

قال الرجل:

- آه ألمانيا، "جيرماني"، جيد جدًا! "مايكل شوماخر"، "بايرن ميونخ"، أهلًا وسهلًا يا أخي!

وعندما استلمت جواز السفر مجددًا، كانت العملة الورقية قد اختفت.

قال "عمر" وهو ينعطف بالسيارة على الكورنيش:

- لماذا لم تأتِ مبكرًا، الأسبوع الماضي مثلًا، ليكون لدينا وقت أطول وتتمكن من رؤية العائلة كلها مرة أخرى.

فأجبت:

- كان لديَّ عمل، ولم أجد رحلة طيران قبل هذا الموعد.

نظرت من النافذة في صمت لأرى كيف أصبحت المباني القديمة. رأيت نافورة الملك فهد المضيئة التي تقع على الساحل. يمكن رؤيتها أيضًا من الطائرة في أثناء هبوطها، كما رأيتُ كذلك القطع الفنية المضيئة على الرصيف التي كنا نلعب حولها في طفولتنا. مررنا بالنُّصب الخرساني الفني الذي تخرج منه أربع سيارات بارزة والذي أعجبنا بشدة عندما رأيناه أول مرة. كنت أُصدِّق منذ فترة طويلة ما كان يحكيه والدنا عن هذا النصب الخرساني، فكان يقول:

- قبل سنوات، كانت هناك أعمال في شارع الكورنيش، حيث كانت السيارات تسير بسرعة جنونية ثم تصطدم بالحوائط الخرسانية، لذا أمر الملك بوضع هذا النصب الخرساني وبه تلك السيارات، لتنبيه باقي السائقين لعدم السير بسرعة جنونية.

ظنَّت "ليلى" وقتها أن الأمر يدور حول قصة أسطورية وقالت:

- لا يمكن أن يحدث ذلك، كما ترى، أن تركن سيارة داخل الأسمنت.

اجتاز "عمر" بالسيارة مدخل البيت وسرنا في شارع قصير وقال لي:

- أهلًا وسهلًا بك في البيت.

دخلت على الفور في موجة من الذكريات التي لا يمكنني تحديد أيها من ذكرياتي الشخصية وأيها مما كانت تحكيه لنا "باربرا". إنها نوادر عن موطن قديم. فأنا أتذكر البوابة على الرغم من أنها بالتأكيد ليست البوابة نفسها منذ عشرين عامًا. لم تُفتح البوابة أوتوماتيكيًّا كما هو منتظر بعد كل تلك الرفاهية، لكنها فُتحت ببطء، الضلفة الأولى ثم الثانية. فتح لنا البوابة رجل كبير السن، محني القامة، ذو بشرة سمراء دكناء وشعر أبيض، ودخلنا البيت بالسيارة "اللكزس".

ضربني "عمر" على كتفي وقال لي:

- يجب أن تتذكر هذا الرجل.

رفع الرجل رأسه وتوجَّه إلى السيارة، تكشف ابتسامته العريضه عن أسنان ناصعة البياض مرصوصة بجوار بعضها البعض. فقلت وأنا لا أكادُ أُصدِّق نفسي.

- "موسى"؟

فهز "عمر" رأسه بنعم وقال مداعبًا:

- أبويا أطلق عليه الرصاص ثمانين مرة ولم يمت وأمر بطرده أيضًا لكنه لم يستجب، إنه يريد أن يموت هنا، وبعدها نرسل إلى زوجاته في السودان آخر قميص ارتداه ليقمن بتقطيعه.

فقال الرجل وهو يمشي متثاقلًا نحو السيارة ليفتح لي الباب:

- يا باشا! يا "باسل"!

نزلت من السيارة المكيفة فشعرت بحرارة الجو في الليل، ثم قال لي الرجل:

- أهلًا أهلًا يا باشا، مبروك، مبروك يا أخو العروسة.

سلمت عليه وهززتُ يده المجعدة واستقبلت أمنياته الطيبة. أردت أن أقول شيئًا ولكن الكلمات وقفت في حلقي الجاف. وشعرت أنني أتنفس بصعوبة. لم أستطع نطق أي كلمة عربية، اللهم إلا أنني قلت بصوت منخفض:

- شكرًا، الله يسلمك.

كان "موسى" كبيرًا في السن أيضًا عندما كنا أطفالًا نلعب في هذا الفناء، وما زال صوته وضحكته العالية لهما النبرة نفسها كما كان من قبل. شعرت فجأة بالتعب الشديد. ظل "موسى" ممسكًا بيدي فترة حتى تركها ليغلق البوابة خلفنا، وانفتح باب البيت الأمامي. سرحت بتفكيري في التغيير الذي حدث بالبيت، حيث الارتفاع الكبير وبناء أدوار أخرى ووجود مساحات خضراء من حوله والواجهات الحديثة والنوافذ. كما يمتلئ الفناء بالإضاءة ويبدو أصغر كثيرًا مما أتذكره. إلا أن رائحة النباتات وماء مكيف الهواء لم يتغيرا.

بدا الوقت للحظة ساكنًا وبدأ العالم يدور من حولي، شعرت بهشاشة ذكرياتي، وشعرت أيضًا بتنميل في أصابعي وبشيء في صدري يريد أن ينفجر.

سمعت صوتًا قادمًا من باب البيت حيث تخرج عمتي "بسمة" – أم "عمر" - مستندة على عكازها وتمشي بخطى سريعة وهي تعدل حجابها بإحدى يديها وتمد لي يدها الأخرى وتقول:

- يا حبيبي! يا قلبي! حمد لله على السلامة، الحمد لله إنك وصلت بخير.

مشيت بضع خطوات نحوها ولاحظت وجود دموع في عينيها. لقد أصبحت عجوزًا وتضاءل جسمها. هل يتضاءل جسم كبار السن مع التقدم في العمر؟ أم أننا نحن الذين ننمو في البعد؟

قبلتني واحتضنتني، وتجمع خلفها آخرون من أفراد العائلة. ضممتُها إلى صدري ودخلنا البيت معًا. تذكرت بعض وجوه الحاضرين، تلك الوجوه التي لم أرها منذ زمن بعيد ولكنهم التحموا بي.

أقبل الحاضرون إليَّ يسلمون عليّ، يهزون يدي ويطرقون على كتفي. وكان عمي "خالد" – والد "عمر" - يقف وراءهم شاحب الوجه، ضئيل الجسد. عمي "خالد" هو شقيق والدي، يقف مرتديًا فانلة بيضاء ويلف أسفل بطنه قطعة قماش كبيرة عليها رسومات مربعة.

تقف إحدى الحاضرين واضعة يدها على كتف عمي "خالد" وترسم ابتسامة رقيقة على شفتيها، وتضع الحجاب على خصلات شعرها اللامعة دون أن تلفه. إنها العروس!

"ليلى"



أتذكر هذه المدينة وبخاصة في وقت المطر الذي يعد حدثًا نادر الحدوث؛ لأن المطـر هنـا يسقط مرة واحدة في العام على أقصى تقدير. ربما يكـون ذلـك هـو مـا جعلنـي أتـذكر ذلـك الوقت إلى الآن. كانت المدينة غارقـة في الميـاه؛ لأن نظـام الـصرف الـصحي البـدائي لم يتحمـل الأمطار التي ظلت تسقط ساعاتٍ، لم نستطع الـذهاب إلى المدرسـة في تلـك الأيـام لأن الفنـاء الداخلي كان ممتلئًا بالمياه وكذلك وصلت المياه إلى الفـصول أيـضًا. كنـت أنـا و"لـيلى" حينهـا جالسين عند نافذة حجرتنا ورأينا رجالًا يرتدون جلابيـب بيـضاء وشباشـب جلـد ينزلـون مـن السيارة ليدفعوها بعد أن عامت في الشارع الممتلئ بالمياه وكأنها سفينة.

ظللنا جالسين ساعاتٍ طوالًا على صناديق بلاستيكية ملونة وننظر للخارج، حيث حولت الأرصفة العالية الشوارع إلى أنهار صغيرة، كما حمل تيار المياه زجاجات بلاستيكية فارغة وأكياس شيبسي وأنواع قمامة أخرى.

كان كل شيء معكرًا في أيام المطر، حتى نخل البلح وأشجار المشمش في حديقة البيت المقابل لنا والسيارة "التويوتا" وكذلك وجوه الناس أيضًا. كانت السحب الممتلئة بالأمطار تغطي المدينة بأكملها، كنا مفتونين بها للغاية لدرجة أننا لم نستطع أن نتوقف عن مراقبتها.

وفي أثناء سرحاني في تلك الذكريات، ازداد الليل ضجيجًا بزيادة الحاضرين وارتفاع أصواتهم. أعرف وجوه الكثيرين منهم؛ مثل أولاد وبنات أعمامي وأعمامي أنفسهم وزوجاتهم والأطفال الذين كبروا وأصبح لبعضهم أسرته الخاصة.

يجلس حولي ثلاثون شخصًا في الصالون الجديد في البيت الذي أصبح متعدد الطوابق، كان البيت سابقًا يتكون من طابقين أما الآن فأصبح يتكون من سبعة طوابق، ويوجد أسانسير من الدور الأرضي وحتى السابع حيث توجد حجرة عمي وزوجته.

وضعوا أمامي أكوابًا من الشاي، وكان التليفزيون الذي يقترب حجمه من حجم شاشة العرض السينمائية يعرض حفلة مسجلة بالأبيض والأسود لـ"أم كلثوم". كان والدنا يسمعها دائمًا عبر كاسيت السيارة حتى نجبره على أن يُشغل لنا أغاني الأطفال.

تجمع الأطفال وأمهاتهم أمام التيلفزيون يلعبون بالـ"آيفون" والآيباد الذي يشغلون عليه "جدو علي عنده حمار" ولعب بلاستيكية على شكل طبلة. وكان الصالون ممتلئًا بصوت حفلة "أم كلثوم" وضحكات عالية وأحاديث ونداء على الخادمات، وعلى الرغم من وجود التكييف، فإن العرق كان يملأ جانب رأسي.

كانت أمامنا أطباق تمر وبندق ومخبوزات، وأشمُّ رائحة القهوة السعودية بالحبوب غير المحمصة والحبهان. بحثتُ بين وجوه الحاضرين عن "ليلى".

جلست في مقدمة الحجرة بجوار عمي "خالد" خالعة حجابها وقد أعطته لإحدى الفتيات لتلعب به. التفتت الفتاة ضاحكة في حجاب "ليلى" ذي اللون الأزرق الفاتح وأخذت تدور حول "ليلى" وتنتف حبات كاللؤلؤ من قماش الحجاب وتمدُّ يدها لـ"ليلى" التي كانت تضحك معها وتصفق بيدها وتغني معها أجزاءً من أغاني أطفال عربية. كانت ضحكات الفتاة تتعالى وتدندن معها الإيقاع حتى اشتبكت في الحجاب واختل توازنها ووقعت على ظهرها فوق السجادة.

كانت عمتي "بسمة" تتحدث عني مع "عمر" الذي يجلس أمامي، أما أنا فظللتُ أراقب "ليلى" وهي تتشارك مع عمي "خالد" في اللعب مع الفتاة. كان وجهها رقيقًا وملامحها أكثر أنوثة، ولاحظت من خلال بلوزتها البيضاء أن وزنها قد زاد بضعة كيلوجرامات. كانت أظفارها مقصوصة وعليها مناكير وردي فاتح وتلبس خاتم الخطوبة الذهبي. بدا الأمر وكأنها قد ورثت من تلك العائلة معالم جسدها، فحركاتها تشبه حركات بنات أعمامي وعماتي، ويخرج الضحك من أعماقها بصوت عالٍ. وعلى الرغم من كل تلك السنوات بعيدًا عن

اللغة، أستطيع أن أعرف أن لغتها العربية ليست بأفضل حال، فهي هنا غير متعَبة وكأنها أصبحت النسخة الأقوى والأشجع من "ليلى".

لم يكن أحدنا قد رأى الآخر منذ أكثر من عام، وتذكرت ذلك اليوم عندما وقفت أمام بابي في لطف تحمل في يدها شنطة جلد بُنية اللون وزنها ضعف وزن "ليلى" نفسها، وكانت ترتدي جاكيتًا قد اشتريتُه لها من محل ملابس مستعملة في لندن وفستانًا من الكتان.

سألتني:

- هل هو هنا؟

وقبل أن أجيبها كانت قد دخلت، فقلت لها:

- لم يعد "أليكس" يعيش هنا.

دخلت إلى المطبخ في حركة سريعة منتظمة ورثتها من أمّنا، ثم تركت الشنطة والجاكيت ودخلت الحمام. كانت تتحرك داخل البيت وكأنها بيتها، وألقت بصندوق الجوابات المغلقة من الكومودينو ولم تلتقطه مجددًا.

كانت هذه هي المرة الأولى التي حكت لي فيها عن خططها، قمتُ أنا بغلي الشاي، في حين ضحكت هي وأخرجت ويسكي من دُرج أدوات المائدة. قالت لي:

- صدقني يا "باسل"، نحن الاثنان في حاجة إليه.



قطع "عمر" تفكيري قائلًا:

- "باسل" يا باشا، باشا! عمتك تتحدث إليك.

ثم ضحك "عمر" وقال لي بالإنجليزية:

- ربما علينا أن نحضر لك مترجمًا للأسبوع القادم.

فابتسمت وقلت بالإنجليزية أيضًا:

- ستسير الأمور على ما يرام، إنني متعَب ولستُ في كامل تركيزي.

قال "عمر" لعمتي بالعربية:

- يا أمي، إن "باسل" متعَب.

فوضعت يدها على خدي برفق وقالت:

- يا حبيبي، بالطبع أنت متعَب، حمدًا لله على السلامة، يا لها من رحلة طويلة! اشرب القهوة.

وقبل أن أرفض، ملأت الفنجان المطلي بالذهب، وقالت:

- هل تحدثت مع العروس؟

فأجبتها:

- لا.

فقالت:

- الحمد لله، عقبالك يا حبيبي، إن شاء الله تجد لنفسك عروسًا قريبًا، تحدثي مع أخيكِ يا "ليلى" يا حبيبتي.

تنحَّت عمتي "بسمة" جانبًا وجلست "ليلى" بجواري. نظرَت إليها الفتاة الصغيرة التي ترتدي الحجاب الأزرق كأنه جيبة بإحباط وأخفَت وجهها في خَجَلٍ في حِجر عمي "خالد" عندما اعتذرتُ لها مبتسمًا لأنني أخذتُ منها رفيقتها في اللعب.

ظللنا صامتين للحظة ثم أدارت "ليلى" حلق أذنها وهي مُحرجة وأخذت قطعة من المخبوزات المصنوعة مع الفستق من الطبق الذي أمامي وكسرتها نصفين وأعطتني نصفًا. تذكرت في تلك اللحظة أننا لم نحيِّ بعضنا البعض.

قالت لي وهي تضع قطعة المخبوزات في فمها:

- أما زلتَ تستطيع؟

فهززتُ كتفي فقط وقلت:

- إنني متعَب بشكل كبير، يا له من شيء مثير للضحك أن نكون هنا مرة أخرى.

أخذتُ قضمة من نصف القطعة التي أعطتني إياها، على الرغم من أنني لا أحبُّ التمر والقهوة والضوضاء والحر. لم يكن لديَّ أي إحساس بالوقت، هل جلسنا ساعتين أم أربع ساعات؟ هل ما زلنا قبل منتصف الليل أم بعده؟ لا يمكن معرفة الوقت من وجوه الحاضرين، فالأطفال ما زالوا يلعبون في صخب داخل الحجرة وكذلك الأحاديث لم تنتهِ.

قالت "ليلى" مبتسمة:

- أنا أعرف ما تقصده، لقد كنتُ كذلك أيضًا، سأذهب بك إلى حجرتك.

مسحت بيدها على ظهري كما لم تفعل قط، ونظرنا لبعضنا البعض. كانت عيناها تلمعان، كالذهب وتظهر بعض التجاعيد حول عينيها، إلا أنها تبدو أجمل وأنقى من ذي قبل، ويوجد رمش ساقِطٌ على خدها الأيمن.

قلت لها:

- متى ستتم جلسة التعارف الكبيرة، ألا يريد خطيبكِ أن يأتي؟

حاولتُ في كلامي أن أكون مفهومًا بقدر الإمكان، فقلتُ "خطيبكِ"؛ لأنني أشعر أن هناك خطأ ما في الكلمة، رغم أنني أعرف اسمه.

فأجابت:

- لقد فضَّل عدم البقاء حتى تتمكن النساء من الجلوس هنا وخلع الطرحة، فهو ما زال لا ينتمي رسميًّا إلى العائلة، وهن جميعًا يُردن استقبالك، فالجميع يشتاق إليك.

أردت أن أقول لها إن هناك مَن تشتاق إليها في ألمانيا أيـضًا ولكننـي أمـسكتُ نفـسي عـن الكلام.

فأكملت قائلة:

- سيأتي غدًا بعد المغرب، حيث نأكل معًا ثم يذهب الجميع إلى الأسفل ليدخنوا الشيـشة ويلعبوا الكوتشينة، حينها يمكنك أن تسأله ما تشاء، فكل ما سيكون في تفكيره هـو أنـه يريـد الزواج بأختك الصغيرة المجنونة.

قلت لها:

- وكل ما سيكون في تفكير أختي الصغيرة المجنونة هو أنها تريد الزواج بمهنـدسٍ سـعودي والعيش في آخر العالم.

خرج هذا الكلام من فمي دون قصد وأسفت لذلك، إلا أن "ليلى" لم تلتفت بنظرها عنـي، كانت تنظر إليّ نظرة ممتلئة بالإصرار، فأنا أعرف تلك النظرة جيدًا. قالـت بنـبرة بـاردة وهـي تضع يدها على ذراعي كأنها تريد الاعتذار:

- أنا سعيدة هنا، ألا يكفي ذلك؟

ثم عادت إلى النبرة الرقيقة وقالت:

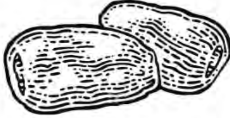
- أنا متعَبـة جـدًّا، فالتحـضيرات تتطلـب الكثـير مـن العمـل وقـدومك جعـل الجميـع في اضطراب، وإلى جانب ذلك، عليَّ أن أتقبَّل أن أمـي تـرفض حـضور حفـل زفـافي. والآن سـأريك حجرتك، تعالَ معي.

قالت عمتي "بسمة" عندما رأتنا ننهض من الجلوس على الوسائد السميكة:

- تصبح على خير يا ولدي.

فابتسمتُ ولوَّحت بيدي للجميع، فلوَّح الجميع لي، وتمنَّوا لي نومًا هانئًا.





"باربرا"



عمَّـدها والـداها في الكنيـسة وسـمَّاها "بـاربرا". وفي مرحلـة الحـضانة، ذهبـت في رحلـة استجمام صيفية إلى "بحر الشمال" مـع مجموعـة تابعـة للكنيـسة. تبـدو "بـاربرا" في صـورتها حينما كانت تقف مع أخيها الأكبر أمام سيارة والدها الـ"فولكس" في "لاجو ماجيوري" بإيطاليا بشعر أشقر مضفر مثبت بعُقـدة في رأسـها المـستدير الـصغير. كـان والـدها قـد اشـترى تلـك السيارة المستعملة ذات اللون الأزرق السماوي بعد أن كسب مائة مارك من رهان على مباراة كرة قدم.

نشأت "باربرا" في أسرة يعمل فيها الأب عامل منجم وأمها ربة منزل في "منطقة الرور" بعد الحرب. كانت أمها تطبخ اللّفت وبطن الخنزير، وتستخدم فرنًا مكانه كان في غرفة المعيشة في بيتهم القريب من أحد المناجم. كانت دائمًا تسوي على ذلك الفرن وعاءً كبيرًا من الأرز باللبن. كانت الأسرة بسبب قلة المال لا يمكنها عمل أي حلوى إضافية، ولم تكن "باربرا" تطيق أكل الأرز باللبن.

وفي شتاء أحد أعوام الستينيات، وقف أمام باب بيتهم أحد أعمامهم ومعه جميع أمتعته وثلاثة أبناء في وسط ظلام الليل والضباب قادمين من ألمانيا الشرقية. قالت أم "باربرا" إنهم الآن سيعيشون معهم. تكدَّس ستة أطفال وأربعة بالغين في أربع حجرات صغيرة مدة عام كامل، وكانت السيدات تلمِّعن الشبابيك يوميًّا وهن تريدين مريلة منقوشة بالأزهار أو نبات الكريز أو أي نباتات، وكان البيت يمتلئ برائحة الكرنب والفحم ومسحوق مبيض للغسيل والخبز. وكان الأطفال يذهبون إلى دار البلدية حيث يقومون بعمل واجباتهم المنزلية، والطفل الذي يقصر في واجباته، يُضرب بالخيشة المبللة ضربة أو ضربتين على رجله العارية.

كانت الجدران مصدَّعة وبها شقوق رفيعة تمتدُّ من أسفل اليسار إلى أعلى اليمين، وقد كان يحكي أخو "باربرا" الأكبر لأخته وأبناء عمه عن الثعابين التي تعيش في تلك الشقوق، وعلى امتداد تلك الشقوق، تنمو طحالب خضراء.

فكان أخوها يقول:

- إن الثعابين تتسلل ليلًا إلى الأسرَّة، وهم يستمعون فقط لكلام الكبار، يمكننا أن نخبرهم أن عليهم الاختفاء ولكن بشرط أن تغسلوا لنا السيارة في الصباح.

أنهت "باربرا" التعليم الابتدائي في السادسة عشرة من عمرها وبدأت تدريبًا لتأهيل الممرضات، ولذلك انتقلت "باربرا" من بيت المناجم الصغير الضيق إلى سكن طالبات التمريض في "سانت أنسجار هوسبيتالز". وتعدُّ هذه هي المرة الأولى التي يكون لـ"باربرا" فيها مكانًا أكبر تعيش فيه على الرغم من وجود فتيات كثيرات معها، كما لا توجد ثعابين في الشقوق ولا خيشة يُضرَب بها الأطفال على سيقانهم العارية.

وفي سكن الممرضات، كانت "باربرا" وصديقتها "أنكه" تتسللان في الخفاء إلى المدينة الصغيرة وتجمعان المال لتشتريا أسطوانات للمغنيين "أودو يورجينز" و"نيل دياموند". كانت أسطوانة الأغنية الواحدة بأربعة مارك، وكانت الفتاتان تتبادلانها ليلًا بين الحجرات. قصّرت "باربرا" الجِيب التي ترتديها في خفية وكانت تدخن السجائر من العلب ذات الخمس سجائر مع الفتيات في طريق عودتهن إلى المنزل. شعرت "باربرا" في ذلك الوقت أن بيت المناجم أصبح مجرد ماضٍ وأن حياتها أصبحت للجِيب القصيرة وأسطوانات الأغاني، غير مهتمة بأمر هؤلاء الراهبات صاحبات المزاج السيئ في سكن الطالبات، فحياتها مليئة بما هو أشد ضيقًا من ذلك.

خُطِبت "باربرا" في أثناء فترة التدريب لصديق طفولتها الذي كانت تكن له كل تقدير، وكان أبوها يصفه بأنه رجلٌ "يُعتمد عليه"؛ لأنه يومًا ما سيتولى

شركات عائلته، وهو يستطيع أن يشتري لها بيتًا ولديه سيارة بالفعل. الأسرتان تعرفان بعضهما البعض، وتحتفلان معًا برأس السنة. وفي الكنيسة، تتبادل أمهاتهم أحيانًا الحديث عن الجـيران وعن الأسعار العالية للجبنة. وحتى "أنكه" صديقة "باربرا" كانت ستتزوج في وقت قريب.

يعدُّ النظام شيئًا أساسيًّا في حدائق بيـوت المنـاجم، فالكرنـب ينمـو في صـفوفٍ منتظمـة، والغسيل يُنشر يوم السبت فقط.، لم تكن "بـاربرا" تتحـدث في البيـت عـن الطبيـب المـساعد الذي تقضي معه ساعات الفراغ في أثناء وردية الليل، لكنها لم تكن تنسى اسمه الغريـب قـط.، كان اسمه "طارق".

وقف خطيبها وصديق طفولتها في يوم عيد ميلاد أمها أمام الباب ممسكًا ببوكيه ورد مـن نوع زهر "الفاوانيا" وقال:

- أريد أن أُودِّعَكم.

لم تفهم أم "باربرا" ما يقصده.

فقال لها:

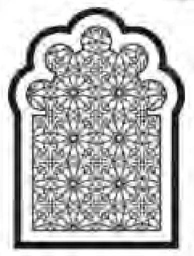
- ابنتكِ تزوجت الطبيب العربي زميلها في المستشفى.

ثم سلمها باقة الورد وانصرف.

- أيوضح لنا ذلك شيئًا يا "باسل"؟

- ربما يا "ليلى"، ولكنني لا أعرف ما هو.

يوم الجمعة



فتحت عينيَّ ولم أكن أعرف هل نحن في الصباح أم لا، حيث يعمُّ الظلام الحالك. استيقظت على صوت شيء ما يزن، وبعدها بلحظة، عرفت أن التكييف هو مصدر الصوت. بدأت ملامح الحجرة تظهر ببطء واستطعت أن أحدد مكان الكومودينو والمرآة، كما يتسلل شعاع شمس من تحت الباب إلى داخل الغرفة. تحسست بيدي مكان التليفون، كانت الساعة الحادية عشرة وسبع دقائق، وكان على شاشة التليفون العديد من الرسائل.

"شبكة موبايلي تحييك في المملكة العربية السعودية، سعر المكالمة المحلية هو...".

"تكلفة الرسالتين القصيرتين هو 2,45 يورو فقط".

"هل وصلت؟ أجب فقط بنعم".

ففركتُ عينيَّ ورددتُ على رسالة "يولي" بعبارة موجزة:

"نعم وصلت متأخرًا، إلى اللقاء".

أنا أعلم أن "يولي" تحب أن أكتب لها رسائل أطول، وفي الظروف العادية أكتب لها ليلًا وأنا على سريري. ومن المعتاد أنني أحكي لها عمَّا حدث في البار إذا لم أجد شيئًا آخر أحكيه، وعما حدث في مكان إقامتي، فتقوم هي بالرد برسائل طويلة يجب عليَّ أن أقرأها.

لكنني لا أستطيع أن أكتب لها رسائل طويلة هنا. ستكون الرسائل عن التكييف الذي أيقظني وعن البيت الذي يشبه النسخة المتوحشة من فنادق "جراند أوتيل"، وبتلك الطريقة فقط ستفهم ما أعنيه تمامًا كما تتفهم كل شيء في حياتي، أما أنا فلديَّ اهتمام أقل بكل ما هو مشترك بيننا. فقررت أن أنهض من السرير حتى لا أفكر فيها أكثر من ذلك.

كانت حجرة نومي - حجرة نوم الضيوف - بها حمام خاص، وضعت فيه عمتي "بسمة" فوطًا بجميع المقاسات، وكذلك أيضًا كلينيكس وشاور جيل وشامبو ومعجون أسنان وكريم شمس وسلاكات أذن ومعجون حلاقة وفرشتي أسنان جديدتين ومغلفتين، وعلى رف المرآة، توجد زجاجة من العطر الرجالي "أولد سبايس"، كما وجدتُ في جيب الجاكيت علبة سجائر "مارلبورو" نصفها فارغ، فتحت النافذة الصغيرة وأغلقت باب الحمام في رفقٍ وأشعلت سيجارة.

تذكرت كلام "ليلى" معي في الليل وهي توصلني إلى غرفتي:

- انتبه لعقب السيجارة، الجميع هنا يدخن في الخفاء، أي ليس أمام عمك "خالد" أو عمتك "بسمة"، شيء سخيف أليس كذلك؟ في السابق كنت أرغب في التدخين لأن عمتي "بسمة" كانت تبدو أنيقة وهي تمسك السيجارة البيضاء الرفيعة بأصابعها ذات الأظفار الحمراء. أما الآن فأصبح التدخين من عمل الشيطان ومن يكتشفون أنه يُدخِّن يُسْمِعونه خطبة، لقد كبروا في السن.

ثم ضحكت "ليلى" ولعبت بخصلات شعرها.

أنهيتُ استحمامي وارتديت ملابسي وذهبت إلى غرفة المعيشة، ولكنني لم أرش معطر "أولد سبايس".

كانت الغرفة باردة، وضوء النهار يكسو كل شيء. لفت انتباهي بالأمس الشبابيك التي يبلغ ارتفاعها أربعة أمتار داخل شرفة نصف دائرية وجميعها تطل على بحر بلا ساحل، بل تقع عليه بيوت عالية غير مكتملة البناء ومراكز تجارية وفنادق. كان يمكن في الماضي رؤية ممشى الميناء من شرفة الدور الأول عندما كانت مباني المدينة كلها قصيرة، حينها كان البيت بسيطًا وأرضيته من الحجارة وقضبان الشرفة من الخشب ونشمُّ فيه رائحة البحر المالحة. باب الشرفة عبارة عن ألواح زجاجية يوجد خلفها سلك لمنع تسلُّل الحشرات الطائرة.

كان باب الشرفة الجديدة مغلقًا، حاولت أن أُدير المقبض وكان ذلك أمرًا صعبًا. وجدت الشرفة واسعة ومُقسَّمة، ورخامها أحمر، وبها تراب، فكل شيء في تلك المدينة مُترَب، ربما لم يدخل أحد قط الشرفة الجديدة.

نادرًا ما يحدث شيء ما بالخارج، اللهم إلا أصوات نداءات قادمة من المدرسة المقابلة للبيت تتسلل من خلال ألواح النافذة، والسيارات القليلة التي تسير في الشوارع الصغيرة وتلف خلال الدوران. تخيلت كيف كبرت المدينة من حول هذا البيت الصغير القديم، كيف بدأت أحوالها في التحسن، وكيف كبرت المباني وارتفعت دورًا فوق الآخر. كان يبدو بالأمس على وجه عمي "خالد" أنه فخور بالبيت الجديد، فهو بالنسبة له إنجاز العمر، حيث يتكون من سبعة طوابق ويجمع كل أولاده بأسرهم كل منهم له شقته في دوره الخاص، وعمتي "بسمة" وعمي "خالد" في الدور الأخير ذي الدرابزين المطلي بالذهب، وهناك أسانسير نحاسي أصفر وقطع أثاث كأنها قادمة من قصر "فرساي" بباريس. خطر ببالي أنني لا أعرف الدور الذي تعيش فيه "ليلى" ومع أيٍّ من بنات عمها تُقيم حتى حلول موعد زفافها.

تذكرت السكن الجماعي في حي "سانت باولي" ذي السخان التالف الذي يصفي مياهه خلال عشر دقائق، وكراسي المطبخ، والعفن حول إطار النافذة. وكان "أليكس" لا يطيق ذلك ولا يعرف كيف يمكنه أن يتكيف مع هذا الوضع.

كان الصالون خاليًا ونظيفًا، والسجاجيد تم تنظيفها للتو، والوسائد مرتبة في نظام، ولا يوجد أثر للأطباق والأكواب والأوعية ولا أثر أيضًا لجو الصخب

الذي ساد بالأمس بل يسود هدوء غريب. فردتُ ذراعي للأعلى ووقفت على أطراف أصابع قدمي ومشيت بضع خطوات بمحاذاة حافة السجادة. رفعت ذراعيّ لأعلى وخفضتهما لأسفل عدة مرات ونظرت من حولي في الغرفة التي لم أستطع أن أحدد معالمها بالأمس لامتلائها بالحاضرين.

على الأرفف الموجودة حول التليفزيون الكبير، هناك صور مبروزة للأحفاد جميعهم في زي المدرسة وبعضهم يحمل في يده شهادة، ويضحكون ضحكة متصلبة أمام الكاميرا. وعلى اليسار، وجدت صورة لي ولـ"ليلى" التُقطت لنا منذ عشر سنوات - على الأرجح - وأنا أرتدي نظارتي السوداء، و"ليلى" عيناها مُحدَّدتان بالكحل، الذي لم تعد تضعه بعد ذلك منذ أن سخر منها "أليكس" وشبهها بالباندا. نظهر في الصورة ونحن جالسون على مائدة مطبخ "باربرا" وأنا أمسك في يدي سكينًا وأقطع التورتة ذات الثلاث كريزات السوداوات التي كانت تصنعها جدتنا كل مرة في عيد ميلادنا.

حتى عندما بلغت "ليلى" الخامسة والعشرين وتقدمت جدتي في السن، صنعت لها تورتة أيضًا. فكانت جدتي تقول:

- من دون هذه التورتة لا نشعر بعيد الميلاد.

لم يظهر من جدتي في الصورة سوى يدها فقط في الجانب الأيمن منها، وهي تمسك منديل الأطباق وتمسح به أصابعها. وكانت "ليلى" تنظر إليَّ وتبتسم وأنا أنظر إلى التورتة وأبتسم أيضًا. بدت الصورة هزلية وغير ملائمة وسط صور الأطفال بزيهم المدرسي، فأردتُ أن أخفيها.

على المائدة الزجاجية في منتصف الحجرة، توجد برطمانات زجاجية مختلفة الأحجام، رفعت غطاء أحدها فاندهشت عندما وجدتها من الكريستال، فأخذت منها تمرة محشوة بالكراميل.

سمعت صوتًا يقول لي:

- صباح الخير يا "باسل".

جفلت من المفاجأة. وجدتها الخادمة الفليبينية "ماري" التي جاءت إليَّ ومدت يدها لي في خجل، فناولتها التمرة كفعل لا إرادي ثم تداركت الموقف فأرجعتها ثانية، فضحكَت هي وقالَت:

- لم أقصد أن أفزعك، أنا آسفة، كيف النوم؟ كيف حالك؟ طيب إن شاء الله؟

فاحتضنتها وقلت لها بالإنجليزية:

- كيف حالكِ يا "ماري"؟ لم أركِ بالأمس.

يكاد يكون هذا الموقف مشابهًا لموقفي مع "موسى"، يعاملونني كأنني لم أكن بعيدًا عنهم، وكأنهم كانوا ينتظرون وصولي حتى كبروا في السن قبل قدومي بوقت قصير.

تعرفنا "ماري" جيدًا منذ صغرنا، فعندما قامت عمتي بزيارتنا في ألمانيا، اصطحبت معها "ماري". كما كبر الأبناء جميعهم والأحفاد في هذه العائلة بين يديها. دائمًا ما ترسل راتبها إلى الفلبين حيث يوجد أبناؤها.



تذكرت موقفًا قديمًا في أحد أيام الجمعة في الماضي، وكنت وقتها أنا و"علي" ابن عمي في سن السادسة أو السابعة تقريبًا، وكانت العائلة بأكملها تجتمع على الطعام يوم الجمعة عند عمي "خالد"، كان ذلك في البيت القديم وقد انتهيتُ أنا و"علي" من الطعام، ثم ذهب جميع الرجال إلى الصالون في الدور السفلي حيث جهز لهم "موسى" الشيشة فاختلطت رائحة التبغ برائحة الطعام داخل البيت، روائح الفاكهة المجففة والفحم والثوم ورائحة الليمون التي تنبعث من المعطر الذي تمسح به الخادمات مفرش المائدة.

تجمَّعت النساء في الصالون حيث يشربن الشاي ويلعبن الكوتشينة ويتبادلن الحديث، أما أنا و"علي"، فكانت لدينا مهمة وهي استكشاف البيت، فصعدنا السُّلم في الخفاء إلى الدور الأخير. كان ذلك مخيفًا؛ لأننا لم نكن نعلم ما سنجده هناك. أحيانًا كانت تنزل "ماري" هذا السلم ومعها ملابس مكوية. صعدنا بضعة سلالم فقط، كان الدور الأخير مظلمًا دائمًا، ولم نجد في نهاية السلم أي باب حجرة مفتوح لندخل منه مثل باقي سلالم البيت، وإنما يوجد باب خشبي أمامه شنط وكراتين وكومة من الشباشب البلاستيكية، فهمس "علي" قائلًا:

- تعالَ، سنذهب إلى الأعلى. قال لي "عمر" إن اللُّعب القديمة هناك.

كنت متشككًا لأن "عمر" كان دائمًا ما يخدعنا، ولكن على الرغم من ذلك، أردت أن أكون شجاعًا وألا أفضح نفسي أمام ابن عمي. تسللنا إلى أعلى وكنا ننظر دائمًا إلى الأسفل لنتأكد أن لا أحد يراقبنا، شعرنا بإحساس الشجاعة

والمغامرة عندما ضغطنا على المقبض النحاسي للباب فانفتح قليلًا، فأدخلنا رؤوسنا الصغيرة بحذر خلال الفتحة.

لم نجد مخزنًا سريًّا للعب الأطفال أو سطح مليء بالفراخ والخرفان كما كنت آمل، وإنما حجرة حقيرة بها سجاجيد بالية، وفي إحدى الزوايا، توجد طاولة الكي، وفي الجدار المقابل، توجد أربعة أسرَّة منصوبة وإلى جانب كل منهم كراسي خشبية عليها بناطيل وتي شيرتات معلّقة. دخلنا الغرفة وبدا على "علي" الإحباط، بينما اقتربت أنا من الأسرَّة وشاهدت الصور المعلقة على الحائط بشريط لاصق، وقف "علي" في منتصف الحجرة مشبكًا يديه. وكانت شمس الظهيرة تتسلل إلى الحجرة من النافذة.

قال "علي":

- هنا تعيش الشغَّالات فقط يا فتى، كيف لم نفكر من قبل في مكان نومهم.

لم أكن قد دخلت غرفة الشغالات من قبل، لا في منزلنا ولا في أي بيتٍ آخر، وشعرت بشيء من القلق والذنب. كانت الخادمة "روزا" لديها حجرة صغيرة تعيش فيها خلف البيت، وكانت "باربرا" تحذرنا من التسلل إلى تلك الغرفة فتقول:

- يجب ألا تفعلوا ذلك، إنها غرفة "روزا"، وهناك لا يوجد ما تبحثون عنه.

حينها كانت "ماري" تعمل لدى عمتي، عندما وقفتُ أمام سريرها وكرسي ملابسها وصورها التي علقتها على الجزء المخصص لها من الحائط، صورًا ملونة وصورًا أبيض وأسود لأطفال فليبينيين يضحكون، وبطاقات بريدية

وقصاصات من ورق الجرائد عليها أحرف لم أستطع وقتها تجميعها. توجد في تلك المجموعة من الصور قائمة طعام دسمة عبارة عن ورقة حمراء بها قائمة مأكولات مكتوبة بهذا الخط الغريب ومعها صور لأطباق المكرونة والأرز والسمك وأرقام تبدو كأنها السعر.

دفعني "علي" للخارج وهو يقول:

- تعالَ، هيا ننزل ثانية، لا يوجد شيء هنا.

نزلنا السلم في هدوء وبخطوات مسرعة، وجلسنا في غرفة المعيشة الصغيرة بجوار باقي أبناء أعمامنا وبناتهم، حيث توجد لعبة "نينتيندو". وعندما دخلت "ماري" الحجرة، نظرتُ في خجل إلى ثقب صغير على ركبة بنطلوني.



قطعت "ماري" تفكيري في ذكرياتي قائلة:

- كيف كانت رحلتك، لعلها كانت بخير إن شاء الله؟ هل نمت جيدًا؟ ما شاء الله، لقد كبرت، مبروك على العُرس، مبروك!

فأجبت بالعربية:

- شكرًا، سعيد برؤيتكِ، ما شاء الله.

لا أعلم إلى متى سأظل أتحدث عن اللـه، ولكنني اندهشت من نفسي أنني استخدمت تلك المجاملات القديمة المعروفة بكل سهولة.

أكملتُ قائلًا:

- كيف الحال؟ كيف حال أبنائكِ وعائلتكِ؟ هل ما زلتِ تملكين مطعمًا؟

فاحمرَّ وجهها وابتسمت في فخر وقالت:

- سبعة أحفاد يا "باسل"، ما شاء اللـه سبعة، والمطعم ما شاء اللـه له الآن فرعان ممتلئان بالزبائن كل يوم، ويديرهما أبنائي، الحمد لله، إن شاء اللـه تزورونني جميعًا في المطعم وسأطبخ لكم.

قلت لها:

- أنتِ أفضل من يطبخ على الإطلاق يا "ماري"، سعيد أنكِ ما زلتِ هنا.

فهزت رأسها شاكرةً وأمسكت يدي بكلتا يديها الصغيرتين، وقالت أخيرًا:

- شاي؟ قهوة؟ أم فطور؟

قلت:

- نعم أود ذلك، هل ما زال الجميع نائمين؟ أين هم؟

فضحكت بصوت مرتفع وقالت:

- بابا "خالد" في مكتبه و"ليلى" مع ماما "بسمة" للتجهيز للفرح، سأناديها لك، وسيأتيك الإفطار حالًا يا "باسل".

الخادمتان الأخريان اللتان نسيت اسمهما لا أشعر بوجودهما، تحملان ترابيزات قابلة للطي في الأسانسير وتُدخلان صواني في غرفة المعيشة، أشم منها رائحة الخبز كما كان في السابق والزيتون الذي تخلله "ماري" بنفسها.

جاءت "ليلى" خلف الخادمتين من الأسانسير، وقالت:

- أخيرًا استيقظت.

كانت "ليلى" ترتدي بنطلون جينز ضيقًا وبلوزة بيضاء مطرزة بوردة بنفسجية وشعرها درجة لونه السوداء أصبحت أكثر سوادًا ولمعانًا مما أتذكر.

قلت لها:

- استغرقتِ في النوم، وكانت الغرفة مظلمة، والبيت هادئًا ولم يوقظني أحد.

فردَّت:

- لا عليك، الأمر ليس سيئًا، إنهم مشغولون جدًّا في التسوق والاتصالات والتخطيط..

وضعت التمرة في فمي أخيرًا لأتخلص منها وسألتها:

- مع مَن تعيشين؟

فردت "ليلى":

- مع "عمر" وزوجته، فلديهما غرفتـان خاليتـان منـذ أن انتقـل ابـنهما الأكـبر للدراسـة في نيويورك، لقد انتقلتُ إليهما في العام الماضي، أنا أحبُّ زوجته جدًّا فنحن نفهم بعضنا البعض جيدًا، وهناك أتمتع بحياتي الخاصة أكثر من هنا.

ثم ابتسمت ابتسامة عريضة وقالت:

- أما الأشهر الأولى لي فقضيتها في الغرفة نفسها التي نزلت أنت بها.

جلـسنا حـول المائـدة الـصغيرة، حيـث جلـست "لـيلى" مربعـة والتقطـت زيتونـة مـع قطعة جبن من الطبق الصغير ووضعتهما في فمها. وضحكت عندما رأت نظـرتي المـشمئزة لهـا وقالت:

- ألا تستطيع أن تأكل بيديك؟

فهززت رأسي بلا وقلت:

- لن يتغير شيء، خذي أدوات المائدة.

فردت قائلة:

- لقد تعودتُ ذلك هنا ووجدته يجعل الطعام أكثر متعة، عليك أن تجرب ذلك.

وكانت ضحكات "ليلى" واضحة. كنا في "هامبورج" نتناول الإفطار أنا و"لـيلى" و"ألـيكس"، وكانت عادتنا حينها ألا نتحدث كثيرًا في معظم الأحيان، بل نقرأ الجرائد أو ننظر مـن النافـذة أو نرمي بعضنا البعض بفتافيت الخبز قبل أن ينشغل كل منا بالأكل.

وبعد لحظات قالت "ليلى":

- عمي"خالد" يريدك أن تذهب معه إلى صلاة الجمعة، وغدًا بعد الإفطار سنذهب في نزهة.

قلت لها:

- وما الغرض منها؟

قالت:

- حتى نخرج جميعًا قبل الحفلة الكبيرة وحتى ترى أنت شيئًا من المدينة.

فرددت قائلًا:

- لا، أنا أقصد صلاة الجمعة، هل يجب عليَّ أن أذهب؟ أنا لا أعرف كيفية الصلاة، كما أنني أعمل في بار.

قالت "ليلى":

- لا يجب عليك أن تصلي، بل افعل كما يفعل الآخرون وهذا ليس صعبًا، ما عليك إلا أن تنحني وتركع وتقوم، افعل ذلك مرتين وستكون قد أديت الصلاة. إن هذا الأمر مهم بالنسبة لعمي "خالد" يا "باسل"، إنه يتحمل مسؤوليتك بما أنك هنا وعليه أن يهتم بألا تدخل النار.

عبستُ بوجهي وشعرت وكأنني محور دعابة ما.

فأكملت "ليلى":

- لا تعبس، إنه كبير السن ومتدين جدًّا، إنه يعتقد أنه سيفتقدك لأنه لـن يـراك في الجنـة وأنت ابن أخيه ويتحمل مسؤولية أن نتجمع جميعًا في الحياة الآخرة، افعل ذلك من أجلـه أو من أجلي.

فقلت:

- ألا تذهبون إلى المسجد؟

فأجابت:

- عمتي "بسمة" تعاني هشاشة في القدم، لذلك نصلي هنا ونشاهد الخطبة في التليفزيون.

شربنا الشاي وحكت "ليلى" عن الزفاف، عن القاعة التي أجروها والـورد والأكـل، وكانـت تـدردش في خجـل أحيانًـا. وعنـدما سـألتها عـن أعـمال البيـت، كيـف يمكنهـا تقـشير تفاحـة وتقطيعها، شعرت أنني أمام "باربرا" بصفاتها وحركاتها وأقوالها. هذا مـا أوضـحه لي الحـديث عن تقشير التفاحة، حيث تجنَّب الإجابة والهروب من الأسـئلة المهمـة. لم تتخيـل "لـيلى" قـط أنها ستخفي مشاعرها. كل ما فعلته أنها جلست أمامي وقشرت تفاحة وبـدأت في الانـصراف. كان من الأفضل أن آخذ منها سكينة التقشير وأغلق يدها وأسألها عما كنا نتحدث فيه، ولكـن قبل أن أبدأ قالت لي:

- تعالَ، عليك أن تستعد، فعمي "خالد" سيدعوك في أي لحظة.

أغنية المساء



أعطت "ليلى" مقاساتي للترزي، وكانت تقديراتها للمقاسات جيدة، وبغض النظر عن بعض الطول البسيط في الكُم، فقد كان مناسبًا تمامًا. كانت الجلابية البيضاء الناعمة مريحة والأزرار تُغلَق في سلاسة، فشعرت كأنني لم أرتدِ نوعًا آخر من الثياب في حياتي. الفانلة والبنطلون الأبيض كانا مكويين للتو أيضًا بكل إتقان، والبنطلون به ثنيات. رفعت ساعد الأيمن وشممت الكُم فوجدت به رائحة كلوركس ورائحة المكواة. أنزلت ذراعي ورفعت ذراعي الأخرى لأتحسس به شعري الممشط. كنت أبدو في المرآة مختلفًا عن ذاك الرجل الذي يعمل في بار لشرب الخمر.

فكرت إن كان ما زال لديَّ وقت لأحلق ذقني، وبينما أفكر، طرق أحدهم الباب على استحياء. أدخلت "ماري" رأسها في ارتباك وقالت:

- ينبغي أن أعطيك ذلك.

وأعطتني شبشبًا جلديًّا فتذكرت الكلمة العربية - شبشب - وتذكرت حركته وصوته، وتحسست الجلد الناعم. كان والدي يرتدي شباشب غالية مزخرفة يصنعها له صانع أحذية في المدينة القديمة، حيث كان يصطحبني معه فأعجبني التطريز الرائع ورائحة الورنيش والجلد. وفي أحد الأيام - كنت في سن السابعة تقريبًا - أخذوا مقاساتي في الأحذية، حيث أمر الصانع مساعده أن يضع ورقة تحت قدمي ويدور عليها بقلم حولها، ثم أرسل صبيه المصري - الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة تقريبًا - إلى الجزء الخلفي من الورشة، وقدم الرجل لوالدي شايًا ولي بيبسي فاترة. جلسنا على كرسي قديم وعرض لنا الرجل تشكيلات مختلفة من الأحذية، منها ذات القطع الصوفية وبعض الخيوط الذهبية والفضية والسوداء.

قال الرجل لي حين ارتديته:

- رائع، ما شاء الله، إنه جميل عليك يا دكتور مثل أبيك.



قلت لها:

- شكرًا يا "ماري".

أدخلتُ قدمي في الشبشب وكان يناسبني تمامًا.



كان المسجد يطل على كورنيش البحر الأحمر مباشرةً وخلفه البانوراما، والمكان الواسع ذو الثماني زوايا أمام المبنى ممتلئًا بالسيارات الفارهة، والسائقون الباكستانيون يجلسون على الرصيف أو يمسكون بسجاجيد الصلاة في أيديهم في الظل منتظرين بداية الصلاة. قاد "عمر" السيارة بي وبعمي "خالد"؛ لأن السائق كان في إجازة في فترة ما قبل الظهر، وحيّا "عمر" بعض الرجال الذين هم في طريقهم إلى المسجد أيضًا. كما أمسك عمي "خالد" عصاه بإحدى يديه وأدخل ذراعه في ثنية ذراعي، كنّا قبل الثانية عشرة بقليل والجو شديد الحرارة، وأشعة الشمس يعكسها الرخام الفاتح في المسجد فوجدت صعوبة في أن أتعرف إلى المكان. أقبلَ بعض الشباب في احترام باتجاه عمي لمساعدته، ومدُّوا إليه أيديهم وتمنوا له يومًا سعيدًا.

كان المسجد من الداخل مكونًا من ثمانية أضلاع تمامًا كالفناء الخارجي ومفروشًا بسجاد أحمر منقوش، والشبابيك العالية يتسلل منها ضوء الشمس. يتحرك الرجال في بطء ويحيون بعضهم بعضًا ويجلسون على الأرض وهم يقولون:

- صباح الخير، كِيف الصحة؟

سرنا خلف "عمر" إلى صَفٍّ من الكراسي على اليسار حيث أجلس هو أباه وأشار لي بالجلوس على الأرض بجواره، وقال لي:

- كبار السن لا يستطيعون الانحناء، لذلك أباح لهم الله الجلوس.

ثم أخرج تليفونه الـ"بلاك بيري" من جيب الجلابية العلوي وبدأ يكتب عليه شيئًا.

امتلأ المسجد بالمصلين، وكانت الضحكة المكتومة للصغار هادئة. أغلقت عيني للحظة فشعرت بالمكان من حولي هادئًا وتحولت الأصوات في الخلفية إلى صوت هواء رقيق، وضعت يديَّ على ركبتيِّ اللتين شعرت فيهما بتنميل كما لم تعد عروق رقبتي تنبض كما كان في أثناء الطريق، وتمنيت لو أنني يمكنني النوم قليلًا. تذكرت كلام "ليلى" حين قالت:

- افعل كما يفعل الآخرون، وسوف تتذكر كل شيء - الحركات وتتابعها وحتى الآيات - أعتقد أن الصلاة لا تُنسى، مثلها مثل السباحة وركوب الدراجات.

ثم تنفست بعمق.. شهيق. زفير.. شعرت بالراحة.

بدأ المؤذن يرفع الأذان قائلًا: "الله أكبر، الله أكبر" فامتلأ المسجد بالحركة ووقف الرجال من مجلسهم واصطفوا، وهزني "عمر" بقدمه برفق ليفهمني أنني يجب عليَّ الوقوف أيضًا.

أكمل المؤذن الأذان قائلًا: "حي على الصلاة، حي على الفلاح... لا إله إلا الله..". نادى المؤذن مرتين إلى الصلاة عبر مكبرات الصوت بنغمة طويلة فيها

مـد. تـذكرت "لـيلى" في صـغرها عنـدما كانـت تـشاهد الخطبـاء في التليفزيـون وهـم يتلـون سورًا من القرآن. كانت معجبة بهم جدًّا وبخاصة أحـدهم الـذي كـان أعمـى ويرتـدي نظـارة شمسية سوداء ولديه صوت نـاعم وعـذب، وكانـت تجلـس طـويلًا أمـام التليفزيـون تـشاهد وتستمع.

نظر كل الرجال من حولي بما فيهم "عمر" إلى الأرض ووضعوا أيديهم على بطونهم وتمتموا ببعض الكلام وبعضهم كان يعد حبَّات السبحة، ثم بدأت الحركة حيث ركعوا ثم اعتـدلوا ثـم سجدوا ثم وقفوا مجددًا. كانوا يقومون بحركات متناسقة تشبه الرقص وكنت أقلدهم، فـأركع وأسجد وأقوم وهكذا عدة مرات، لكنني نسيت مـا ينبغـي أن يُقـال في الـصلاة، أعتقـد أننـي كنت أعرف ذلك في الماضي لأننا تعلمناه في المدرسة كما كان والدي يـردده معنـا وكنـا نفتخـر أننا استطعنا تلاوته دون أخطاء. لا أتذكر إن كان أبي استمر في الصلاة بعد أن انتقلنا إلى ألمانيا أم لا، وسألت نفسي متى بدأ ينقطع عن ذلك الروتين؟

ركزت على أوامر الإمام حيث كان المصلون يتبعون حركاته بعـد أن يقـول: "الـلــه أكـبر"، وكنت أعرف أن الجزء الأخير من الصلاة نختمه جالسين، فأغلقت فيه عيني كما يفعـل بعـض الرجال، وحركت شفتيَّ، لكنني لا أعرف ما يجب أن يُقال، ووجدت نفسي أهمس ببيت شـعر الطفولة الذي نحفظه كلنا للشاعر الشهير "ماتياس كلاوديوس":

"ظهر القمر وتلألأ النجم الذهبي في السماء الصافية".

هذا أول شيء جاء في مخيلتي.



حين كنتُ في الصفِّ الدراسي السابع، وَجَبَ عليَّ حفظ هذا البيت الشعري. ما زلت أتذكر جدتي وهي تكوي الملابس في المطبخ و"ليلى" تجلس على الطاولة وتقوم بعمل واجباتها. كنتُ ممسكًا بكتاب القراءة أمامي أقرأ فيه، وكانت جدتي تستطيع ترديد سبعة أبيات شعرية كاملة دون أخطاء وهي تكوي بنطلوني وفستان "ليلى" وبلوزة "باربرا".



أكملتُ ترديد البيت قائلًا:

"ما أجمل هدوء العالم وهو يلتف في ظلام الفجر في لطف".

أنهى الإمام الصلاة، وشعرت بألم فراق جدتي على الرغم من أنها ماتت منذ سنين أو ربما بسبب فكرة "ليلى" العنيدة بأن آتي إلى هنا لأدفع ثمن فراقها هي أيضًا، وأكملت الأبيات قائلًا:

"ننسج خيوطًا في الهواء ونبحث عن الفنون ونقترب من هدفنا".

ثم توقفت عن إكمال القصيدة وقلت لنفسي: "هكذا أنتِ يا ليلى".

تذكرت قولها لي في "هامبورج":

- أحيانًا يكون على الإنسان أن ينفذ ماذا يريد.

فقلت لها:

- هذا أمر مؤكد.

لكنني حينها لم أكن أتصور أنها تعني ما نحن فيه الآن. وقف الرجال من حولي في بطء وظل بعضهم جالسًا يتمتم ببعض الأدعية في صمت، وقاموا بتشغيل تليفوناتهم مرة أخرى وسُمع صوتها.

قال لي عمر:

- "باسل" يا أخي، لقد كنت شارد الذهن تمامًا، هل نمت أم كنت تصلي فعلًا؟

قلت له وأنا أحاول أن أبتسم:

- هذا وذاك.

فأحاطني "عمر" بذراعه وضمَّني إليه ونحن نسير، وأكمل قائلًا:

- يا باشا نحن سعداء برؤيتك هنا، إننا نفتقدك ونفتقد والدتك، من المؤسف أن الخالة "فاطمة" لم تأتِ فلديكم قوانين مضحكة في ألمانيا، حيث قالت "ليلى" إن عليها العمل هناك دون الحصول على إجازة لحضور زفاف ابنتها.

لم أكن أعرف ما يجب أن أقوله فهززت كتفي، فأنا و"ليلى" نعلم أن "باربرا" هي التي فضَّلت العمل، ولكن كيف يمكن أن أشرح لـ"عمر" ذلك.

شعرنا بالحر الشديد أمام المسجد، وكان عمي "خالد" يمشي خلفنـا ويتحـدث مـع رجلـين، وعندما مر أمامنا أحد الشَّحاذين ومدَّ يده أعطاه عمي "خالد" عملة ورقية ومسح على كتفه.

أكمل "عمر" قائلًا:

- لا عليك يا باشا، لا عليك، سنجد حلًّا، سيكون أبوك فخورًا بكـما، والآن سـنذهب بعمـك إلى البيت ثم نأكل آيس كريم على الكورنيش، اتفقنا؟



وبعد أن أوصلنا عمي للبيت ليحصل على قيلولته ذهبنا عبر الشارع الخـالي وكنـت أنظـر من النافذة شارد الذهن إلى المنطقة السكنية التي تبـدو مهجـورة، وعنـدما وقـف "عمـر" إلى جانب الطريق، أردت أن أزيد برودة التكييف.

قال "عمر" لي:

- هل تتذكر هذا؟

كنا في منتصف منطقة سكنية وأمامنا سور قديم مرتفع تعلوه أسلاك شائكة. فتح "عمـر" باب السيارة وأشار لي بالنزول. كان الجو خارج السيارة شديد الحرارة فانتفضت عندما لمـست قدماي الأسفلت وهما داخل الشبشب، نظرت من حـولي ونظـرت لابـن عمـي متحـيرًا فأنـا لا أعلم أين نحن.

سرنا بجانب السور بعض الخطوات فشعرت بالعرق ينساب على قفـاي. أشـار "عمـر" إلى أحد البيوت في منطقة محاطة بسور وهو يقول:

- هنا.

للوهلة الأولى، شعرت أنها جميعًا تشبِهُ بعضُها بعضًا، بيوت قديمة كالصناديق وبهـا عـدد الشبابيك نفسه، ثم شعرت فجأة أن قلبي يدق وهمست قائلًا:

- البيت القديم.

فأخرج "عمر" علبة سجائر من الجيب العلوي للجلابية وهو يقول متحمسًا:

- كنت أعرف أنك ستتذكره، هيا التقط بعـض الـصور لتريهـا لأمـك ولكـن دون أن تلفـت الأنظار فالمكان عليه حراسة كما ترى.

يوجد على السطح من ناحية اليـسار في الـصف الأخـير مـن الكومباونـد بنـاء خـشبي بـه شبابيك صغيرة مزخرفة. ورأيت من بُعد أن الخشب قد تآكـلَ وأن لونـه الأحمـر الغـامق قـد تقشر مع الزمن. كان أبي هو من بنى هذا المبنى لأنه أراد لنفسه مكانًا يستقبل فيـه أصـحابه ليدخنوا الشيشة ويلعبوا الكوتشينة، وكان يسمح لي أحيانًا بالجلوس لمشاهدتهم. كان أصحابه يعلمونني خُدع الكوتشينة، وكان هو يحكي لهم عـن درجـاتي في المدرسـة، فيقولـون لـه وهـم يطرقون على كتفي:

- إن شاء الـلـه يسير على خطاك يا دكتور "طارق".

وعندما كانت تأتي "ليلى"، كانوا يهتمون بها أكثر مني وكانوا يُعجبون برشاقتها وخصلات شعرها الأسود التي يلعبون فيها بأصابعهم، ولم يكن يسبب لي ذلك أي إزعاج.

فتحت الكاميرا بتليفوني الـ"آيفون" وقرَّبت الصورة والتقطت ثلاث صور مهزوزة أو أربعًا، وكنت أشعر كأنني أشم رائحة الشيشة في حجرة السطح وأجلس على الوسائد البُنيّة القبيحة.

كانت سيارة "عمر" تحت ظل نخلة بلح فاتكأنا على باب الكرسي المجاور للسائق وأشعلنا سيجارتين وقلت لـ"عمر":

- شكرًا.

لم أتذكر شيئًا آخر من اللغة العربية لأقوله، ثم سكتنا لحظات وقال لي بعدها:

- هل حكت لك "ليلى" أنني أتيت بها إلى هنا أيضًا؟

فنظرت إليه وهززت رأسي بلا.

فقال لي:

- بعد أن خُطبت، سألتني إذا كان البيت القديم ما زال قائمًا أم لا فأتيت بها إلى هنا، وللأسف لا يمكن لأحد دخول الكومباوند ما دام لا يعرف أحدًا بالداخل، فوقفنا هنا كما نحن الآن، وانفجرت "ليلى" في البكاء ولم أكن أعرف ماذا أفعل فتركتها تبكي. اعتقدتُ أنها تذكرت والدكما وتذكرت الماضي كله.

ثم أخذ نفسًا عميقًا من سيجارته "المارلبورو" ونظر إليَّ وأكمل قائلًا:

- ولكن لم يكن ذلك هو السبب، لقد قالت إنها تشتاق إليكم كثيرًا، أنت وأصدقائكم ومدينتكم، وسألتني "من أين أعرف هل حققت ذاتي هنا أم لا؟". وكنت أتفهم ذلك، أتعلم؟ كنت سأعيش في الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن أنهيتُ دراستي، ولكن لم أستطع فراق هذا البلد.

لم تحكِ لي "ليلى" قط أنها كانت لديها شكوك في أنها ستفتقد ألمانيا، وأردت أن أسأل "عمر" ماذا قالت بعد ذلك وأردت أن أسأله هل فكَّرَت في الأمر بعد ذلك أم لا وأردت أن أخبره أننا اشتقنا إليها. ولكنني خفت أن يعتبر ذلك تجريحًا ففضلت السكوت.

قال "عمر":

- لكنها تمالكت نفسها مجددًا، فأختك قوية جدًّا وتعرف ماذا تريد، أنت تعرفها أكثر منا جميعًا بالتأكيد. أريد أن أخبرك فقط أنها تشتاق إليكم حتى وإن لم يبدُ ذلك عليها.

ثم فتح باب السيارة وصعد بداخلها وقال لي:

- يالَّا اركب، فعمتك تنتظرنا على الغداء.



الانتقال



لم يكن لدينا تصوُّر عمَّا هو قادم.

لم نكن نعرف أننا لن نعود مجددًا إلى موطننا في جدة، حيث اشترى والدانا بيتًا جديدًا وجهزاه لنا في ألمانيا لنعيش فيه وأن ذهابنا هناك ليس لإجازة الصيف فقط مثل كل عام.

كانت الحياة في صغرنا تسير في كل عام على وتيرة واحدة تبدأ من شهر يوليو عندما ينتهي آخر يوم دراسي فنفرح أنا و"ليلى"، ثم حفل تسليم الشهادات الذي يُقام بفناء المدرسة وتُنادَى أسماؤنا على المنصة.

كنا نعرف أننا من الطلبة الأوائل في المدرسة، وهذا يعني أننا سنذهب أمام أعين جميع زملائنا إلى مدير المدرسة على المسرح في مشهد عظيم نعتبره – كوننا أطفالًا - عظيمًا، ولذلك يجب الاستعداد له جيدًا. كانت "ليلى" ملتحقة بمدرسة البنات وأنا بمدرسة البنين المجاورة لها، إلا أن الاحتفالات في المدرستين كانت تتم بأسلوب واحد.

كانت "ليلى" تتسلل إلى الفناء الخارجي للبيت بعد العَشاء ممسكةً بحذائها الجلدي الأبيض اللامع وتطرق على باب "روزا" لتطلب منها لوازم تلميع الحذاء، ثم تجلس على السلم الخارجي وتُلمِّع الحذاء بقطعة قماش مُقطَّعة، في حين أُطعم أنا قططنا التي اتخذت لها من البيت مكانًا للعب.

قالت "ليلى" في هدوء وهي تبتسم:

- "ريهام" قالت لي إنها كادت أن تتزحلق على المسرح في العام الماضي، يجب عليَّ أن أنتبه لذلك.

وفي مساء آخر يوم دراسي من كل عام، بعد أن نُنهي كل شيء ونشعر بالتعب ونُعلِّق شهاداتنا، تبدأ "باربرا" في التحضير للسفر. فهي تجيد ربط الأمتعة، وفي آخر يومٍ دراسي، ترتدي القميص ذا الدوائر البيضاء والزرقاء وتربط شعرها الأشقر القصير برباط من الخلف وتفتح شنطتي سفر أو ثلاثًا على السرير الكبير لوضع الأشياء بداخلها، وكانت تتحرك في خفة كالريح فلا نعلم أهي تمشي أم تجري أم تتحرك بحيث لا يمكن الإمساك بها وإنما فقط نشعر بحركتها.

جلستُ أنا و"ليلى" على الأرض أمام حجرة نوم والدينا، وكانت "ليلى" تحاول أن تُطبِّق الكثير من فساتين الدُّمى وتضعها في شنطة الرحلات القصيرة وهي ما زالت ترتدي زي المدرسة، لدرجة أن البنطلون الأخضر الخشن قد ترك أثرًا في ساقها، كما كانت هناك بقعة مانجو على ياقة البلوزة البيضاء. وكعادتنا في آخر يوم دراسي من كل عام ونحن في طريق عودتنا إلى البيت، نقف على الكورنيش ونشتري الأيس كريم، وكان آخر يوم دراسي هو اليوم الوحيد الذي يأخذنا أبي بنفسه من المدرسة.

ما زلتُ أتذكرُ أننا كنا نأكل الآيس كريم في السيارة وليس خارجها لأنه غير مسموح لنا بذلك، فكنا نجلس في حذر داخل سيارتنا "المرسيدس" ذات الكراسي الجلد ونحرص على ألا يتقاطر منا الآيس كريم، فيضحك أبي ويخبرنا ألا نقلق من شيء، فكل شيء مسموح لنا اليوم.

كنا نقضي آخر ليلة قبل السفر – أول يوم إجازة رسميًّا - في بيت عمي "خالد"، حيث يلعب الرجال الكوتشينة ويدخنون الشيشة في الفناء. كما تطبخ عمتي "بسمة" الأرز المعمَّر مع الفراخ بالحبهان وتصنع لنا نحن الأطفال السمبوسك والآيس كريم للتحلية بعد الأكل، وبعدها يسمحون لنا بلعب الكرة في الفناء.

كان أبي يكسب في الكوتشينة بفضل قدرة "ليلى" على التجسس وهي تضحك عندما يشتمها عمي "خالد" بصوت عالٍ مداعبًا.

لا أتذكر طريق العودة إلى البيت، ولكنني متأكد أنه يختلف عن المعتاد في باقي الأيام. كانت "ليلى" تنام في حِجر أمي، أما أنا فأجلس بجوار أبي وهو

يقود السيارة وأعلِّق على السيارات الأمريكية وأشاهد البحر ونافورة الملك فهد التي تُصدر ألوانًا مختلفةً في الدقيقة الواحدة فكنا نقوم بعدِّها.

كنتُ أفكر دومًا إن كان هناك أيَّ شيءٍ مميزٍ في اليوم الذي حصلنا فيه على آخر شهادة وقضينا فيه آخر ساعات في بيتنا القديم، وأحاول أن أتذكر أي نظرة مميزة نظرتها أمي أو تصرُّف مختلف من أقاربنا أو أنهم نظروا إلينا بشكل مختلف، إلا أن ما يمكنني تأكيده أن كل شيء كان طبيعيًّا كالمعتاد. اعتقدنا أننا فقط سنذهب في إجازة صيفية طويلة إلى جدَّينا وأقارب أمي في ألمانيا حيث يقود أبي سيارة جدي الحمراء القديمة في طريق الجبال - فهو يحب ذلك -واضعًا فواحة برائحة الليمون في التابلوه ممتزجة برائحة التبغ الموجودة في فرش السيارة والتي لم أكن أحبها.

دائمًا ما كنت متأكدًا من أننا لم نكن ندرِي في ذلك اليوم بالوضع الذي يتغير حولنا.

قضينا الصيف في ألمانيا كالمعتاد في شقة يملكها والدانا وتفصلها شوارع قليلة عن جدينا. كان الفرق بين الشقة وبين البيت القديم الكبير يزداد وضوحًا كل عام، فلم نعد في حاجه إلى أن نتقاسم غرف الأطفال، لكنه شيء جميل لو ظللنا هكذا لأسابيع قليلة فقط.

اصطحبنا جدانا إلى حديقة الحيوانات وإلى حمام السباحة وإلى الحديقة العامة ثم ذهبنا في نزهة لمدة أسبوعين إلى "آلجوي". وكنّا في أثناء الزحام الشديد الذي لا نهاية له، نستمع إلى المسلسل الإذاعي "بنيامين بلومشن"، ثم انكسر ذراع جدتي وهي في حمام السباحة الخاص بالبنسيون فجبَّسه أبي لها.

قبل نهاية الصيف بقليل، عندما بدأت حرارة الجو تنخفض، بدأت تحدث أشياء جديرة بالملاحظة، فقد اشترت لنا أمي جواكت ثقيلة وأحذية شتوية، ولم تهتم "ليلى" بذلك في حين كنت أنا متشككًا في الأمر؛ لأنه نادرًا ما تقل درجة الحرارة في جدة في فترة الكريسماس عن خمس وعشرين درجة.

إلى أن حان وقت الحديث مع السيدة "كورنر"، وهي سيدة باردة المشاعر لديها شعر أحمر ممشط للخلف وترتدي نظارة رفيعة على حافة أنفها، عندما كنتُ في التاسعة من عمري، لم أعرف لماذا لا ترتدي السيدات في ألمانيا ملابس منمقة، بنطلون بدلة مثلًا إذا لزم الأمر، ولكنهم بدلًا من ذلك يرتدون الجينز والبلوفر أو ما هو أسوأ مثل "سويت شيرت" عليه صورة دب أو كلب. كما أنه ليست هناك من ترتدي حذاء بكعب عالٍ وهذا الأمر شغل "ليلى"، فما زلتُ أتذكر أنها سألت "باربرا" ذات مرة قائلة:

- ماما، أين أحذيتكِ الأنيقة؟

فضحكت أمي وكان رأيها أن أحذية الكعب العالي غير عملية، وقالت:

- ستعرفين ذلك عندما تكبرين يا حبيبتي.

كانت أمي تتصرف كالألمانيات عندما نكون في إجازة في ألمانيا.

جلس والدانا معي أنا و"ليلى" في غرفة مدير مدرسة "هاينريش هاينه" بالدور الأول. تلك المدرسة التي نعرف جيدًا واجهتها المبنية من الطوب لأنها تقع في مقابل بيت خالتي، وكنا نأتي إلى هنا مع أولادها بعد الظهيرة لنركب

العجل في فناء المدرسة، وكان أحد أبناء الجيران يغيظنا ويدفعنا لعمل اختبار شجاعة ألا وهو أن نقترب بقدر المستطاع من أحد كلاب الحراسة في بيت خلف المدرسة، وغالبًا ما كان ينتهي الأمر بالدموع حيث يفزع أحدنا من الكلب أو يقع بركبتيه على الأرض الصلبة ويُصاب.

طرحت علينا السيدة "كورنر" أسئلة كثيرة تتعلق بالحساب والقراءة وعدد الحروف الهجائية التي تعرفها "ليلى"، فأجابتها "ليلى" وكأنها تهينها:

- أتقصدين بالعربية أم الألمانية أم الإنجليزية؟

كما سألتنا: هل سنأتي بالعجلة أم بالباص؟ وأعطت أمي قائمة بأشياء يجب إحضارها، مثل علبة ألوان مائية لـ"ليلى" وكراسة وكتب لي، وتحدثَت مع أبي بصوت عالٍ وكأنه أصم.

ما زلتُ أتذكر أن "ليلى" أمسكت بـ"السويت شيرت" الذي أرتديه وقالت لي:

- هل ستكون هذه مدرستنا يا "باسل"؟

ونظرت إليّ وكأنها تريد أن تقول: "لكنني أريد أن أتسلم شهادة التكريم في العام المقبل وأن أُسلم على مديرة المدرسة".

ليت ذلك كان مجرد خطأ أو سوء فهم أو على الأقل مرحلة انتقالية، فليس هناك سبب يمنعنا من العودة إلى بيتنا القديم. كما أن أشياءنا ما زالت هناك.

ودَّعنا السيدة "كورنر"، وكانت "ليلى" ممسكة بيد أبي وتنظر إلى المديرة وتقول:

- هل ستكون هذه مدرستنا يا أمي؟

فسكتت "باربرا" لحظةً ونظرت لأبي الذي أومأ برأسه.

قالت "باربرا":

- يا حبيبتي إن أباكِ يجب أن يذهب إلى المدرسة بدءًا من الأسبوع القادم، أليس جميلًا أن تكوني في المدرسة نفسها مع "باسل" وأن تركبا العجلة في الصباح إلى المدرسة.

بالطبع لم يعد أبي يذهب إلى المدرسة، وإنما قدَّم في الجامعة ليحصل على تدريب متخصص في الطب، هذا ما أوضحته لي أمي في وقت لاحق.

ذهبنا إلى مدرسة "هاينريش هاينه" الابتدائية، حيث التحقت "ليلى" بالصف الثاني والتحقتُ أنا بالصف الرابع رغم أنني كان من المفترض أن ألتحق بالصف بالخامس، إلا أن المدرسة في ألمانيا لم تعترف بشهادتي فأعدتُ آخر سنة في الابتدائية، حيث كانت السيدة "كورنر" قد أخبرتني أنني أكتب الألمانية بشكل سيئ وأن مستواي لا يؤهلني للصف الخامس ورشحت لي الالتحاق بالمدرسة التجارية. ما زلت أتذكر كيف كان والدي آسفًا لسماع ذلك، إلا أن "باربرا" هدَّأته وأخبرته أن الأمر ليس سيئًا فما زال لديَّ وقت لأعيد الصف الرابع وبعدها يكون كل شيء طبيعيًّا. ولم أستوعب ذلك كله، ففي بلدنا القديم، لا يوجد هذا النظام التعليمي، كما أنني أريد أن أُكمل تعليمي حتى

شهادة الثانوية مع صديق الحضانة، أتذكر أن هناك ما أخجلني في ذلك اليوم واعتبرت أن "هاينريش هاينه" إنما هو شخص يكرهني.

قدمتني المعلمة في أول يوم دراسي أمام الفصل قائلةً:

- هذا "باسل" جاء من بلد بعيد جدًّا وسيكون زميلكم في الفصل، ساعدوه في كل شيء.

لم يبدُ على الأطفال أنهم اهتموا بأنني جئتُ من بلد بعيد. أتذكر أنني عقدتُ ذراعي وكأنني أحمي نفسي من نظراتهم اللامبالية.

قال لي أحد الصبيان الجالسين في الصف الأول وهو يناولني حجرًا:

- هل تريد طوبة يا "باسل"؟

أفزعني حشرجة صوته العالي الذي يبدو كأنه يدخن كما أفزعني ما عرضه عليَّ، فيبدو لي أن هذه طريقة غريبة في إلقاء التحية.

فرددت وأنا لا أعرف لماذا قلت ذلك قائلًا:

- لا، لديَّ الكثير.

لم أكن قد جمعت الطوب منذ فترة طويلة منذ أن كنت أتعارك مع "ليلى" فتجمع هي الحصى من الشاطئ وقطع الرخام من بيت عمي. وهكذا رفضت أول صداقة لي في هذا الفصل الغريب مع هؤلاء الأطفال الأغراب.

كانت المرحلة الانتقالية سلسة وصامتة، ظللنا نذهب إلى المدرسة الجديدة في ألمانيا دون أن يتحدث أحد عن العودة إلى جدة. فكل يوم يستقل أبي السيارة إلى الجامعة، وأذهب أنا و"ليلى" إلى المدرسة، ونجلس في الفُسحة بعيدًا عن باقي الاطفال. لم تكن "ليلى" تترك يدي مطلقًا وكنتُ أنا سعيدًا لأن المدرسة لا تفصل بين البنين والبنات.

كنا نشاهد باقي الأطفال ونلاحظ اختلافهم عنا، فالبنات يرتدين الأحذية نفسها كالأولاد وأحيانًا الملابس نفسها كالجينز و"السويت شيرت" بالألوان الزرقاء والحمراء والبنفسجي وعليها خطوط أو رسومات لافتة، ونادرًا ما ترتدي إحدى الفتيات حلقًا مثل "ليلى" وبنات عمي. وحتى نحن، أصبحنا نرتدي الجينز و"السويت شيرت". وأخفت "باربرا" حذاء "ليلى" الجلدي الأبيض اللامع عن ابنتها حتى لا يسخروا منها في المدرسة.

كانت تلك الملابس تعني لنا شيئًا واحدًا؛ وهو أننا لن نكون أغرابًا عن هذه البلد، كما أصبحنا نشبه باقي الأطفال ونتحدث مثلهم، فبفضل أُمِّنا وجدينا الألمانيين أصبحنا نتحدث لغة سليمة، كما لم نعد نستخدم ألفاظ لغة بلدنا القديم اللهم إلا فقط في بعض الأحيان يسألنا أحد زملائنا عن معنى لفظ قلناه وهو غريب عنهم وشعروا بأن نغمة اللفظ مثيرة للضحك دون أن ننتبه نحن لذلك.

اهتمت "باربرا" في ذلك الوقت أن يكون كل شيء مجهز، فرتبت الشقة واشترت لنا ملابس من محلات "C&A". ومسحت الشقة. دار بذهني وقتها

أنني لم أرَ أمي تمسح الشقة قط، حيث كانت "روزا" تقوم بـأعمال المنـزل في معظـم الأحيـان، لذلك كان على "باربرا" أن تبذل مجهودًا كبيرًا.

كنا نقضي وقت ما بعد الظهر مع جدينا، وكنا نشعر أن شقتنا ضيقة وممتلئة عـلى الـرغم من أن أبي لم يكن يأتي قبل حلول أول الليل.

كان البيت الذي يستأجره جدَّانا يقع في منتصف الطريق بين المدرسة وبـين شـقتنا، وكـان أمام البيت صندوق به رمل ولم يكن يُسمح لنا باللعب فيه لأنه كان حمَّامًّا للكلاب، كما يوجد مكان لركن العجل أمام باب المنزل. فكنَّا نضع العجل هناك يوميًّا في منتـصف النهـار ونتنـاول الغداء مع جدينا ونشاهدهما وهما يلعبان الكوتشينة، وفي كثير من الأحيان، يطبخان شـوربة الخضار واللحم أو السكالوب مع البطاطس، وكان جدي يعلمنا الكوتشينة. وفي أثنـاء اللعـب، يجبُ على "ليلى" أن تُركِّز في الإمساك بثلاث عشرة ورقـة مـن الكوتـشينة دون أن يـرى بـاقي المشاركين في اللعبة ورقها، ودائمًا ما كان يسقط منهـا الـورق عـلى الطاولـة في أثنـاء محاولتهـا سحب ورقة، وكانت جدتي تضحك وتدير وجهها وكأنها لم ترَ ورق "ليلى".



مات أبي فجأة بسبب سكتة قلبية في أحـد أيـام الثلاثـاء بعـد الظهـر في غرفـة المعيشة في بيتنا بألمانيا، كنا نجلس أنا و"ليلى" بجوار بعضنا البعض عنـدما سـقط الكـوب مـن يـده عـلى المائـدة الزجاجيـة بغرفـة المعيـشة وتطـايرت الـشظايا،

وعلت صرخات أمـي وظلـت تنـادي عـلى اسـمه بـصوت قـوي رنـان وكأنـه يقـف في مكـان بعيد.

عندما دخلنا إلى الغرفة، كـان أبي ممـددًا عـلى الكنبـة البُنِّيَّـة كأنـه نـائم ويـده ممـدودة للأسفل، وعلى المائدة الزجاجية بغرفة المعيشة كوب الـشاي المكـسور و"بـاربرا" تجلـس عـلى الأرض وتصرخ، ونرى وجهه الأبيض يزداد بياضًا، ولم نكن ندري ماذا نفعل.

وفي باقي اليوم، أتذكر أن جدينا قد حـضرا فجـأة وسـلمَّانا لخـالتي، وأتـذكر أبنـاء خـالاتي الذين ركبنا معهم العجل في الفناء وجدِّي الذي وقف أمام النافذة وبـكى، ذلـك الرجـل الـذي دائمًـا مـا كنـا نـراه يـضحك ويتحـدث قلـيلًا، لا نـراه إلا وفي يـده لعبـة الكوتـشينة أو واضـعًا الهارمونيكا في فمه يعزف عليها، ها هو يقف أمام النافذة ويـبكي بـصوت عـالٍ ويمـسح أنفـه بمفرش المائدة المخطط.

سألتُ خالتي التي كانت تبكي أيضًا قائلًا:

- هل أصيبوا جميعهم بالجنون؟

ما زلت أتذكر أنني ضحكت من الخوف ومن الخجل، وكان واضـحًا لي أن شـيئًا سـيئًا قـد حدث إلا أنني ظللت أضحك.

أمسكت بذراع "ليلى" وبدأت أتفهم بعض المعلومات من كلام جديٍّ، ففهمت أن أبي مات بسبب سكتة قلبية، فأخبرتها أن لا ذنب لها فيما حدث وأجلستها على حِجري.

وعندما عُدنا مجددًا إلى الشقة الصغيرة، لم نجد أبي، وجدنا "باربرا" تجلس في غرفة المعيشة ترتدي بلوفر أسود برقبة عالية وعيناها حمراوين وبقايا الزجاج المكسور مُكوَّمةً جانبًا. انتبهت "باربرا" لمجيئنا عندما وقفنا أمام الباب، وسألتني "ليلى" بصوت منخفض:

- ماذا حدث لبابا؟ أين ذهب؟

قلتُ لها بطريقة قاسية فزعت أنا نفسي منها:

- لن تفهمي هذا الآن، ابقي هادئة.

ثم أمسكت بيدها واصطحبتها إلى المطبخ قائلًا:

- تعالي، سأُعد لنا شيئًا نأكله.

أعدت لنا جدتي الفطائر، وكان جدي ما زال يقف في الشرفة ممسكًا بمفرش المائدة، كما أجلست جدتي "ليلى" على مائدة المطبخ وضمتني إلى صدرها وأعطتني طبقًا من الخيار المخلل وسندوتش جبنة.

في سن المراهقة، كانت تقول "ليلى" لي مرارًا وتكرارًا إن أبي مات في الغُربة مكسور القلب، فالشعور بالبعد عن الوطن هو ما كسر قلبه والرجل البدوي لا يستطيع الحياة بعيدًا عن أصله، وكنتُ أرى ذلك سخفًا مع أنني في الوقت نفسه كنت أعرف أنها مُحقَّة فيما تقول.

لم نتحدث مطلقًا عن اليوم الذي مات فيه، وكأننا جميعًا مسحورون أو أن القصة لم تكن حقيقية ولم تحدث وستكون واقعًا عندما يتحدث أحد عنها، حتى "باربرا" اختفت ولم يتحدث أحد عن أن الشقة أصبحت خالية بشكل ملحوظ.

انتقلنا إلى بيتٍ آخر كان قد اشتراه أبي قبل وفاته ويقع في الحي نفسه من المدينة الذي يعيش فيه جدَّانا وفيه مدرستنا. بيت عائلة مبني على الطراز الألماني يقع في شارع "نويباو" مع جيران جدد، ومعنا في الشارع يعيش أطفال ألمان ذوو شعر أشقر مع آبائهم ويحملون أسماءً ألمانية، ويوجد شجر أبو فروة على جانبي الشارع، ويتم جمع القمامة يوم الثلاثاء. كانت الساحات أمام البيوت نظيفة والنباتات مقلَّمة، وكل مالك بيت له مكان لركن سيارته.

تم تجهيز البيت بعفش تم شحنه بحرًا في "كونتينر" من بلدنا القديم إلى ألمانيا. وقد تولى بعض أصدقاء أبويَّ هذا الموضوع، ففي أحد الأيام، جاءت إلينا عربة نقل وأفرغت حمولتها من العفش الذي تركناه قبل سنوات قليلة في بيتنا القديم، حيث سريري القديم وأثاث حجرة المعيشة القديمة الواسع المريح ذي الألوان الفاتحة، وكنبة وكرسي فوتيه ومائدة ثقيلة وكراسي بظهر طويل من القطيفة.

بعد أن تم تفريغ الحمولة بأكملها، وقفنا أمامها أنا و"ليلى" شغوفين، وشممنا رائحة الكلوركس وملمِّع الخشب، وكنت أتمنى أن تأتي سحابة محمَّلة بعطر الياسمين الخاص بـ"روزا" من البيت.

فرشت أمي حجرة المكتب الخاصة بوالدي في إحدى غرف الدور السفلي، وهي تتكون من أثاث مصنوع من خشب الكرز وأرفف لوضع الكتب عليها

ومكتب، كما وضعت على الأرفف كتب الطب الخاصة به وكذلك مجموعة مجلاته الإنجليزية "ناشيونال جيوجرافيك". وكانت الكتب مرتبة بالطريقة نفسها في ترتيبها في البيت القديم، وامتلأت الحجرة بالأزهار وبنا ولم يكن ينقصها سوى وجود أبي.



كان جدي لأبي خياطًا ولديه محل صغير في المدينة القديمة مكة، أما جدي لأمي فكان يعمل بمنجم "تسيشو هوجو" في منطقة "الرور". وكانت جدتي لأبي باكستانية الأصل وتدور حولها الأساطير بأنها كانت من أسرة عريقة وهربت من أسرتها مع شخص سعودي يعمل في الخياطة إلى الدولة البدوية المسماه بالسعودية، أما جدتي لأمي فكانت تُطعم الأوز في إحدى المزارع، وهي فتاة قبل أن تعود إلى مدينتها الأم بعد الحرب في منطقة "الرور" وتتزوج من شاب عائد من الحرب في "بروسيا الشرقية" وينجبا ثلاثة أبناء.

سافر أبي وهو ما زال في سن صغيرة إلى ألمانيا، حيث تعلم اللغة ودرس الطب وعمل مصادفةً في مدينة صغيرة في منتصف منطقة "الرور" وتعرَّف إلى ممرضة ألمانية صغيرة السن، وسافرا معًا إلى البلد الذي تعيش به عائلته وأنجبا طفلين، ولم يكن جدَّاي لأمي قد سمعا عن هذه الدولة من قبل.

إن انتقال أبويَّ هو ما سبب لي عقدة حياتي؛ الحيرة بين الانتقال والبقاء، فصحيح أن المثل العربي يقول: "الحركة بركة" ولكن ليس دائمًا.

- أما زلتَ تتذكر ما كنا نقوله وقتهـا: "في حيـاة التـائهين، لا مكان للحب".

- "لأنهم يحتاجون إلى طاقة كبيرة للبقاء على قيد الحيـاة"..

نعم ما زلت أؤمن بها.

الجسور



لم تكن "ليلى" قد أدركت مدى جاذبيتها لدى الرجال، حيث كانوا يتتبعونها بنظراتهم في المدرسة وحتى في المراحل التالية في "هامبورج" ويحاولون الاقتراب منها وإثارة انتباهها تجاههم، لكنهم في الوقت نفسه يتراجعون أمام تلك الفتاة الجميلة الواثقة بنفسها ذات الشعر الأسود القاتم. وفي يوم من الأيام، ونحن الثلاثة مجتمعون، قال لي "أليكس":

- أختك جميلة جدًّا، سيتسبب ذلك في الكثير من المشكلات ولذلك علينا أن ننتبه يا صديقي.

لم تكن "ليلى" مُعجبة بشخصٍ آخر سوى "أليكس"، وقالت لي ذات مرة:

- أشعر أمام "أليكس" بالانبهار.



بعد حوالي ستة أشهر من سفرها إلى جدة، كتبت لي جوابًا، وكعادة جوابات "ليلى"، كان مليئًا بالبهجة ومربكًا، وأخبرتني فيه أن شخصًا يُدعى "رامي" قد خطبها، وكنت أرى هذا الاسم للمرة الأولى.

فكتبت لي:

"إنه مثلنا يا "باسل"، له وطنان".

أخبرتني أنه من أم بريطانية وأب سعودي، وأنه مهندس ويعمل في شركة مقاولات عالمية مطور مشروعات.

فكتبت:

"لقد عاش "رامي" في "لندن" ويعلم تمامًا كيف يكون إحساس أن تبحث عن أصلك".

كانا قد تعرفا إلى بعضهما البعض عن طريق أحد أبناء عمي، وهكذا تسير الأمور عندهم، أن يتعرف شخصٌ إلى شخصٍ يعرف شخصًا يريد أن يتزوج.

كنت أجلس إلى مائدة المطبخ ممسكًا بجواب "ليلى" في المسكن المشترك الواقع بحي "سانت نابولي"، ذلك المسكن الذي تركته "ليلى" ثم تركه

"أليكس"، وكان أحد المشتركين معي في السكن يجلس في غرفته على الأرض وكنت أنسى اسمه دائمًا.

ظللت أنظر في الصورة المرفقة مع الجواب لحظاتٍ، تلك الصورة التي التقطتها "ليلى" للخردة القديمة وفيها منظر الميناء مع زيت السفن وبائعي السمك والصورة لها إطار ذهبي قبيح، ثم فتحتُ اللاب توب لأرد على جوابها. بدأت أكتب على اللاب توب ولم يكن مهمًّا بالنسبة لي هل هذا المدعو "رامي" يعلم إحساس الحيرة في البحث عن الموطن أم لا؟ وأيضًا هل حسمت "ليلى" أمرها بالنسبة للبحث عن موطن وقررت اختيار حل غير منطقي بالنسبة لنا، لكنها ترتاح إليه؟

ثم مسحت كل ما كتبته، وكتبت فقط:

"متى يجب عليَّ الحضور؟"

ثم ضغطت على زر الإرسال.



حضر المهندس "رامي" بعد صلاة المغرب، وعرفته على الفور بمجرد أن دخلت حجرة الصالون. حيث كان يتحدث مع أعمامي وأبنائهم وينظر كثيرًا في التليفون، وفجأة وقفت "ليلى" بجانبي وأمسكت بيدي وقالت:

- كن لطيفًا، إنه رجل جيد.

فقلت لها وأنا أطقطق أصابعي:

- سنرى.

فدفعتني باتجاه خطيبها وهي تقول:

- أنت مُضحك.

ثم نادت على خطيبها، فرفع نظره من التليفون، فقالت له بالإنجليزية:

- هذا أخي "باسل" يا "رامي".

فابتسم ومد يده لي وقال:

- أهلًا وسهلًا، حمدًا لله على السلامة، كيف حالك؟

قبض على يدي بقوة. شعرت بها مُفعمة بالقوة والنشاط، ولغته الإنجليزية بلكنة بريطانية أصلية، وليست بها لهجة على عكس أبناء عمي.

قلت له:

- شكرًا، بخير، ألف مبروك، أنا سعيد برؤيتك.

فقال لي:

- حدثتني عنك "ليلى" وأعلم أن لديك ألف سؤال، دعنا نُدخن الشيشة معًا في وقت لاحق.

كانت بشرته أفتح من بشرة عائلتي وعيناه خضراوين، وذهلت من صغره وقوته كسعودي شاب ذي جلباب أبيض وسمين بعض الشيء. كان يختلف كثيرًا عن "أليكس" الذي يبلغ طوله نحو مترين. ربما تعجب "ليلى" بدلته الرياضية الخضراء التي كان يرتديها. كان حاجباه مستويين وأظفار يديه مقلَّمتين. ولم يكن لديَّ انطباع جيد عن الرجال الذين يهتمون بجمال أيديهم.

قلت له:

- بكل تأكيد.

إلا أنه ركَّز انتباهه مرةً أخرى على التليفون، فلفَّت "ليلى" ذراعها حول ذراعي وذهبنا إلى الكنبة.

قلتُ لها وأنا أنظر إليه:

- إنه يبدو شخصًا لطيفًا.

كان "رامي" يجلس أمامنا بجانب "عمر" ويحكي له شيئًا ما وهو يلوّح بيده بهمجية ويريه صورًا على التليفون فيضحكان عليها، فأكملت كلامي لـ"ليلى" قائلًا:

- إلا أنه يجب عليكِ أن ترمي تليفونه.

فضربتني "ليلى" على كتفي وقالت:

- لا تعتبر الأمر سخيفًا، إن لديه مشروعًا كبيرًا، لذلك يتفقد الإيميل باستمرار.

كان شيئًا جيدًا له أن يحظى بهذا الحب من شخصية مثل "ليلى"، تلك الفتاة التي لا تسمح بالعلاقات الرمادية غير الواضحة، وإنما تختار أحد اللونين الأبيض أو الأسود، فحتى "أليكس" لم يستطع أن يستمر في حبها وكانت تقول لي دائمًا:

- إنه لا يستطيع تحمل حبنا لأنه يُحطِّمه.

سألتها:

- وماذا ستفعلين بعد زواجكما؟ هل ستستطيعين العمل بعد الزواج؟

فقالت:

- سأستمر في إعطاء كورسات اللغة الألمانية، فـ"رامي" ليست لديه مشكلة في ذلك، وسيسمح لي عمي "خالد" بالعمل في الشركة بين الحين والآخر إلى أن تتحسن لغتي العربية.

ثم نظرت في خجل وقالت:

- ونريد أيضًا أن يكون لنا أبناء قريبًا.

كانت "ليلى" قد كتبت لي قبل ذلك أن الإنسان يحتاج إلى مكان ثابت يعيش فيه، وأن يكون هذا الشيء المسمى بالأسرة فقالت:

- المبدأ الأساسي هو أن الإنسان يُنتج، وعندما يفترق الإنسان إلى إحدى ضفتي جسر من آلاف الجسور التي تملأ الدنيا ويترك النجوم على الضفة الأخرى، ينتهي الأمر بأن يقف أحدهم على أحد جانبي الجسر وينتظر ويتساءل: لماذا لا تتحرك باتجاهي؟ حينها يجب عليك أن تتحرك إلى الآخر وتبقى بجانبه.

كانت "باربرا" تقول: إن "ليلى" تكذب على العائلة وأن هذا كله نزوة من نزواتها. والآن تتحدث عن الأطفال وهي مثبَّتة في أحد جانبي الجسر، إن هذا يغيظني بشكل أكبر. لكنني نظرت إليها وأنا أعلم أن "باربرا" لم تكن محقّة، فـ"ليلى" لا تكذب على العائلة فهي مقتنعة بما تقول.



وبعد تناول الطعام، انصرف "رامي" وسط توديع حارٍّ من الجميع، كما مسحت "ليلى" على كتفه برفق وهمست له بشيء. ولم نكن قد تحدثنا أنا و"رامي" إلا عن عمله وعن الأيام التالية، ولم يكن هناك وقت لندخن الشيشة معًا. شعرتُ بأنني محظوظٌ لذلك، حيث قال "رامي":

- يجب أن أذهب إلى المكتب يا صديقي، فالمشروع يجب أن يقف على قدميه قبل أن نبدأ رحلاتنا، لكننا سنجلس معًا مرة أخرى، يجب أن تحكي لي عن "هامبورج" فأنا معجب بمنطقة "هافن سيتي".

جلس عمي "خالد" معي أنا و"ليلى" وأحضرت لنا "ماري" الكعك والشاي والقهوة والتمر على الرغم من أننا جميعًا لم نكن نستطيع أن نأكل شيئًا آخر بعد وجبة العشاء الدسمة.

استرحنا على الفرش المريح وشربنا الشاي واستمتعنا بلحظة الهدوء، وظننتُ أن عمي "خالد" قد دخل في النوم، إلا أنني لاحظت يده التي تتحرك بين حبَّات السِّبحة وفمه الذي يتحرك بشكل غير ملحوظ.

قالت "ليلى" وهي تمسح على ظهر عمي "خالد" بحنان:

- هل تم اشتقاق كلمة "جَدة" في اللغة العربية من الجِدة – أُمِّ الأب أو أم الأم - فهناك خرافة تقول إن قبر حواء أم البشر يوجد هنا، فبالنسبة لعمي، فإن هذه علامة أكيدة على أن مهد الحضارة ومولد الإنسان كانا هنا.

قال عمي وهو ينظر إليَّ بعينيه السوداوين اللتين تظهر حولهما ابتسامته:

- انظر يا ولدي، الله نظر إلى تلك البقعة أولًا، التي انتهى فيها مطاف أُمِّنا "حواء" في نهاية رحلتها. صحيح أننا جميعًا سنتجمع مرة أخرى هنا، ليتحقق مُراد الله – يا رب - وتبدأ كل قصة وتجد نهايتها. أختك أحست بذلك فأطاعت أمر الله يا "باسل".

قالت "ليلى" وهي تضحك:

- لقد أردت فقط أن أكون مع عائلتي يا عمي.

قال عمي "خالد":

- لديَّ شيء لكما.

ثم أكمل وهو يلوِّح إلى "ماري":

- أحضري الظرف من المكتب.

عادت "ماري" بعد فترة قصيرة، وأعطته ظرفًا بُنيًّا، ففتحه عمي في بطء وتأنٍّ بأصابعه المجعَّدة وأخرج منه كومة من الصور. وكانت الصورة العلوية تُظهر عمي نفسه في أثناء أدائه الخدمة العسكرية، وكان يبدو في الصورة الصفراء صغيرًا جدًّا في السن، وصورة أخرى لجدتي العربية - ستي - التي لا نتذكرها، حيث ماتت ونحن ما زلنا صغارًا، وتظهر في الصورة وهي ترتدي قفطانًا أخضر فاتحًا وتجلس على كرسي فوتيه وتنكبُّ على كتاب وترتدي على رأسها حجابًا أسود وتحته ضفيرة رمادية فضية طويلة ذو ثلاث تعقيدات.

بدأ عمي "خالد" يحكي قائلًا:

- ذات مرة، و"ليلى" عُمرها بضعة أشهر فقط، كان أبواك في زيارة هنا. أردنا أن نخرج نحن الأربعة وكنا ما زلنا في سن صغيرة، وكانت عمتك قد فصَّلت طقمًا جديدًا ما زلت أتذكره، حيث الجيب الخضراء كلون النجيل في ألمانيا، ولم يكن أحد هنا قد ارتدى هذا اللون من قبل، فالأذواق هنا تبدو كالتراب على العفش، لقد كان الطقم رائعًا وكانت فيه تشبه المغنية "فيروز"، كما تزيَّنت أمك أيضًا وذهبنا بالسيارة إلى حفلة راقصة بنادي الدبلوماسيين. وظلت جدتك هنا ترعاك أنت و"ليلى" وأيضًا "عمر" و"سحر" اللذين كانا أكبر

منكما، ولكنني لم أعد أتذكر كم كان سنهما حينهـا. عمتـك هـي مـن تتـذكر تلـك التفاصـيل، ولكن في كل الأحوال، ظلت جدتك ترعاكم، هل ما زلتم تتذكرونها؟ إنها أمي وأم أبيكم. أنـتِ تشبهينها يا "ليلى" يا بنتي، انظري هنا في الخلف حيـث توجـد لهـا صـورة، كـان لـديها شـعر طويل مثل "سحر" ومثلكِ أيضًا سابقًا، حيث كانت الـضفيرة تُجـرُّ عـلى الأرض وكانـت تحـرق مقدمتها بالفحم حتى لا تنمو أكثر من ذلك، فينتج عن الحرق رائحة قبيحة لا زلت أتـذكرها، فقد كنا نظن أن أحد الكلاب المتوحشة قد سقط سهوًا في النار. ماذا كنت أريد أن أقول؟ نعم لقد تذكرت، كيف كانت جدتك ترعاكم. تأخرنا في الحفل حتى الثانية أو الثالثة، وكانت لـدينا طاقة وقتها لنكمل الحفل، وكانت عمتك وأبوك يرقصان بشكل جيد، وأخبرتنـا جـدتكِ أنـكِ لم تكن لديكِ رغبة للنوم يا "ليلى" يا بنتي وظللتِ تبكين. وعندما دخلنا من باب الـشقة، كانـت هي جالسة على الأرض كعادتها وقد جعلتكِ تنامين في حِجرها وغنت لكِ وهي تهـزكِ، وكنـتِ أنتِ تضحكين في سعادة يا بنتي. كانت قد كحَّلت عينيكِ ووضعت حنَّة في يـديكِ عـلى شـكل شجيرة صغيرة حول أصابعكِ، كنتِ تبدين جميلة جدًّ كالمرأة البدوية، فضحكنا جميعًا ما عـدا أمكِ التي جذبتكِ من يد جدتكِ وبدأت تشتم بالألمانية وتصرخ في وجه أبيكِ، ثم بـدأتِ أنـتِ أيضًا تصرخين في ظل محاولات أبيكِ أن يهدئكما، وجدَّتكِ لا تفهم ما حدث، فهي تريـد فقـط أن تهدئَكِ. لم تكن أمكِ تعلم عاداتنا في التعامل مع الأطفـال، أظـنُّ أنهـا فزعـت مـن الكُحـل والحنة، إلا أنه قلقٌ مُبالَغ فيه، حيث كانت أمكِ تبكي أكـثر وأكـثر ولا أسـتطيع أن أفهـم شـيئًا منهـا إلا اسـم أبيـكِ الـذي ظلـت تكـرره كثـيرًا "طـارق" وضـمتكِ إلى صـدرها محاولـةً مـسح

الكُحل بكُمها. وساعدتها عمتكِ في تنظيفـكِ، وبـدأ أبـوكِ يُفهمنـا أن في ألمانيـا يكـون الأطفـال الرُضَّع نائمين في مثل هذا التوقيت، كما أنهم لا يضعون للأطفال أي ماكياج. وقال إنـه لا أحـد هناك يفعل ذلك، ولذا فزعت أُمكِ - والتي نسميها "فاطمة" أيـضًا - فهـي لا تعـرف العـادات هنا، وكانت وقتها صغيرة السن، أصغر من سنكِ الآن يا "ليلى".

استطعت أن أتخيل صورة "باربرا"، تلك الشابة الـشقراء ذات قـصة الـشعر القـصيرة عـلى الموضة وهي ترتدي فستان سهرة أزرق أو أخضر فاتحًا – الألوان المُفضَّلة لهـا – وتـرى ابنتهـا بين يدي حماتها البدوية ترسم لها الحنة وتضع لها الماكياج مثل الأميرات الكارتونية.

أعطانا عمي "خالد" صورة بالأبيض والأسـود بهـا أربعـة شـباب ذوو أعـين سـوداء واسـعة يقفون بجانب سور وينظرون إلى الكاميرا في قلق، أحدهم أبي والآخرون إخوته، وتبدو الصورة كأنها من قرنٍ آخر ومن حياة أخرى.

فهمست لي "ليلى" قائلة:

- هل هؤلاء المجانين أقاربنا؟

قال عمي "خالد":

- كان أبوكِ رجلًا طيبًا، فكان يحب مساعدة الجميـع، لـذلك أراد أن يكـون طبيبًا، ولم يكن يمكنه دراسة الطب هنا في ذلك الوقت، فأرسلناه في منحـة إلى ألمانيا وجمعت الأسرة المال من بعضها البعض لبـاقي أغـراض معيـشته هنـاك،

حيث تشارك عمكِ وعمتكِ وأبواي وجدَّاي، جميعهم كانوا يريدون أن يكون "طارق" طبيبًا.

أخرج عمي "خالد" صورة أخرى لحفل زفاف أبي وأمي. كان أبي يضحك ويحمل على يديه أمي الشقراء التي ترتدي فستانًا أبيض وهما يضحكان ويتصرفان على طبيعتهما في ممر خشبي في إحدى الدوائر الصغيرة للأحوال المدنية بألمانيا، ويساندهما جدَّانا الألمانيان صحابا المذهب البروتستانتي وهما يرتديان ملابس يوم الأحد المكويَّة التي تغطي الرقبة، حيث ترتدي جدتي أحد فساتينها المشجَّرة لونه أزرق غامق وياقته بيضاء وشعرها مجعَّد، وبجانبها جدي الذي يرتدي بدلة واسعة قليلًا وكرافتة محكمة الربط. وبجوارهما عمي "خالد" وعمتي "بسمة" كأنهما أخوا الملك وينظران في ترقُّب لوالديِّ العروس. كانت عمتي ترتدي فستان سهرة أحمر وتُمسك شنطة يد ذهبية اللون وشعرها يبدو أنيقًا بتسريحة شعر كموج البحر، تلك السيدة التي كنا نحبها طوال طفولتنا وكانت "ليلى" تريد أن تكون مثلها.

أمسك عمي "خالد" كتف أخيه - العريس الجديد - وضحك في وجهه ضحكةً صافية، وبذلك لن يكون للعروس الجديدة ما تخشاه. سألت نفسي لماذا لم أرَ تلك الصورة من قبل؟

كانت جدتي الألمانية تقول دائمًا: إنها لم تجد على الخريطة من قبل ذلك البلد الذي ستتزوج فيه ابنتها، وكانت تقول عنه إنه بلد من وحي الخيال.

قال عمي "خالد" وهو يمسح بيده على صورة الزفاف:

- جدك الـلـه يرحمه لطَّف الجو، حيث ذهبنا جميعًا لحضور حفل الزفـاف في ألمانيـا، ولم تكن جدتك قد ركبت الطائرة في حياتها، كنا في منتصف الشتاء والجو شديد البرودة، أظنُّ أنه كانت هناك ثلوج تتساقط. لم نفهم لغة جدَّيك الألمانيين ولم يفهما لغتنا أيضًا، كانـت أمـك مـا زالت صغيرة وقلقة، فلم تكن تنطق بكلمة وتنظر فقط إلى أبيك، كما أقبـل جـدُّك الألمـاني إلى أمي وحضنها، أظنُّ أن جدتك لم يلمسها رجل قط في حياتها إلا زوجهـا، فنظـرت إليـه في ذُعـر وكذلك كان رد فعل أبيك أيضًا، أظنُّ أن أمك حينها تمنت لو أن الأرض انشقت وابتلعتها، لقـد كنَّا جميعًا ما نزال صغارًا.

رفع عمي "خالد" نظره عن الـصورة ونظـر إلى "لـيلى" وأمـسك يـدها ومـسح برفـق عـلى أصابعها الرقيقة، فوضعت "ليلى" الصورة التي تمسكها في يدها الأخرى على المائـدة وأمـسكت يد عمي المجعَّدة بقوة.

قال عمي "خالد":

- عندما أراد أبوكِ أن يتزوج أمكِ، قال الجميع هنا: "لماذا يريد الزواج بألمانية؟ فهنا توجد الكثير من الفتيات الجيدات"، ولكنه لم يرد، فسافرت إليه في ألمانيا لأتحـدث معـه ولأرى تلـك الفتاة الألمانية، فقد كانـت صـغيرة الـسن، أصـغر مـن سـنكِ الآن يـا بنتـي وشـديدة الجـمال وممتلئة بالحيوية، حينها تفهمتُ أخي. طلبت منها أن تطبخ لي أرز بخاري ومحشي.

ولمعت عينا عمي وامتلأتا بالذكريات وبالحب، وأضاف:

- بالطبع لم تكن تعلم أنني أختبرها، ولكنها طبختهما بشكل رائع، فقد علَّمها أبوكِ بشكل جيد، وبعد الأكل، ذهبت معها إلى المطبخ لأرى كيف تعدُّ القهوة. أتعلمون؟ هذا الاختبار يُجرى لكل زوجة ابن، فالقهوة يجب أن يتم إعدادها ببطء، كما يتم سحب الكنكة في الوقت المناسب حتى لا تفور القهوة، وإذا فعلت أي فتاة ذلك، تكون هي الزوجة المناسبة لأنها سيكون لديها الصبر والثقة بالنفس كي تتصرف بسرعة في الوقت المناسب.

فنظرتُ إلى "ليلى" وسألتها:

- هل يجب عليكِ أيضًا أن تُعدي القهوة؟

فقالت وهي تضحك:

- أظنُّ أن هذا الأمر لم يعد موجودًا.

فقال عمي "خالد":

- "ليلى" يا بُنتي، يؤسفني أن أمكِ لم تستطع المجيء، يجب أن تفهمي أنها لم تغفر لأبيكِ أنه رحل. عمتكِ تقول دائمًا: "الحظ يدقُّ باب البيت الذي يوجد به أمل، كما تأتي لحظة تُخبِّئ الكثير من الخير"، إن شاء الله تكون هذه اللحظة مع "رامي"، وبالنسبة لأمكِ، فقد مرت عليها اللحظة مسرعة، لذلك يجب أن تسامحيها.

رُفع الأذان بالخارج، فقام عمي "خالد" ليستعد للـصلاة، وفي أثنـاء مـروره بجانـب "لـيلى" وهي منكبَّة في مجلسها على الصور تنظر إليها، قبَّلها رأسها ذا الشعر الأسـود، كـما ربَّـت عـلى كتفي. سالت الدموع مـن عينـي "لـيلى"، فحبـست دموعهـا أنفـاسي وأردت أن أُحمِّـل أحـدًا المسؤولية سواء أكان "أليكس" أم "باربرا" أم أي أبله قد أزعجها يومًا ما. إنني لست غريبًا عن "ليلى".

لم أهنأ بالنوم في المساء، وحلمت أنني في منطقة مليئة بالوحل ومحاطـة بالنخيـل، أرضـها لونها بني غامق ويخرج منها بخار. شعرت بالأرض ناعمة وطريَّة تحت قدمي، ثـم نظـرت إلى قدمي الحافيتين الغارقتين في الوحل، وتتسلق الخنافس الصغيرة الصفراء والخضراء عليها حتـى تصل إلى طرف بنطلوني ثم تتسلل داخله. كان هناك أيضًا دخان ساخن ورطب يتـسلل داخـل البنطلون كالخنافس وينتشر في ملابسي كلها.

كنت واقفًا في صالة خالية في بيت له سلالم مظلمة كبيرة وشبابيك عالية، وتقف امرأة على السلم وتنظر من النافذة وهي تلتف في خيوط رفيعة من الحرير وتبدو كالمتصلبة.

شرنقة من الزجاج وامرأة تنظر من النافذة.



دُرَّة



ذهبنا في عطلة نهاية الأسبوع إلى الشاطئ، حيث استأجر "رامي" بيتًا كبيرًا للعائلة كلها في كومباوند "دُرَّة العروس" الذي يبعد ساعة عن جدة لقضاء العطلة فيه؛ حتى نتمتع جميعًا ببعض الاستجمام قبل صخب حفل الزفاف.

قال لي "رامي" في المساء:

- الكومباوند جديد وعصري، وهناك تقود الفتيات السيارة ولا يتقيدن بارتداء العباءة، فكل شيء هناك مُيسَّر والسيدات تسبحن وتجلسن في مطاعم تطل على البحر.

بدا على "رامي" أنه يهتم بأن أعتبره متحرر الفكر، ربما يكون كذلك بالفعل.



كنا نقضي العطلات جميعها في الماضي على البحر ولكن ليس في "دُرَّة"، فلم يكن أبي يستأجر بيتًا وإنما يملأ السيارة بالسجَّاد والمُبردَّات والشيشة، وكنا نقف بالسيارة على الشاطئ كما تفعل العائلات جميعها بعيدًا قليلًا عن الكورنيش، ثم تبسط "باربرا" السجَّاد، في حين نرتدي أنا و"ليلى" ملابس السباحة، ويُشعل أبي الفحم في شواية ليضعه على حجر الشيشة. وفي المساء، نشوي الذرة والكفتة على الشواية نفسها، كما نحفر أنا و"ليلى" في رمال الشاطئ ونسبح في البحر وأبي وأمي يجلسان في ظل السيارة يراقباننا.



ركبتُ أنا و"ليلى" السيارة مع "رامي" والآخرون يتبعوننا بسياراتهم، حيث أجلس أنا بجانبه وتجلس "ليلى" في الخلف مثلما كنا نفعل في الماضي، فعندما عرضت عليها الجلوس بجانب "رامي" قالت لي:

- أنت تعلم أنني لا أحب الجلوس في الأمام.

كانت شمس ما بعد الظهر حارقة، فلبست نظارتي الشمسية، كما كانت الرحلة شاقَّة وطويلة، والطريق مزدحم بالسيارات التي تسير في مسارات متعرجة أمام بعضها البعض على الكورنيش في اتجاه الطريق السريع، وهناك أطفال يلوِّحون من شبابيك السيارات والسائقون يستخدمون آلات التنبيه ويصيحون في وجه بعضهم البعض والسيدات يرتدين الحجاب. نظرت في مرآة السيارة، فرأيت "ليلى" ترتدي عباءة سوداء فقط فوق ملابسها الصيفية الحمراء وتضع حجابها على كتفها كأنه شال وتُرجِع نظارتها الشمسية فوق

شعرها للخلف. تلاقت أعيننا في المرآة، فابتسمت "ليلى" ابتسامتها الجذابة وهزت رأسها وأعطتني لبانة، و"رامي" غارق في اتصالات تليفونية لا تنقطع عبر سماعة الرأس، ففي البداية، كانت الاتصالات مع زملاء العمل ثم أصبحت الاتصالات لطلب العَشاء.

ظلت الشمس حارقة عندما وصلنا "دُرّة العروس". فحص أحد الحراس الواقفين عند الباب رُخصة "رامي". كان الحارس يرتدي زيًّا أبيض ويُعلّق مدفع رشاش على كتفه ويبدو أنه لا يزيد سنه عن ستة عشر عامًا. لكزني "رامي" بمرفقه برفق وقال لي:

- ستكون رحلة ممتازة يا صديقي، فالكومباوند جديد وسيُعجبك.

فأثارني فخره وحماسته.

سرنا بالسيارة ببطء داخل الكومباوند بين المحلات الصغيرة وأماكن الجلوس على الشاطئ وطرق سير السيارات الممتلئة بالزرع، كما توجد ملاهٍ صغيرة تنطلق منها الصيحات والصفافير، وتلمع أضواء ملوَّنة مع بداية غروب الشمس. بدا كل شيء كأنه داخل عدسة كاميرا. وضعت "ليلى" يدها على كتفي فالتفتُّ إليها فهمست قائلة:

- أفضل من ديزني، أليس كذلك؟

فابتسمنا في وجه بعضنا البعض، وقال "رامي" ضاحكًا:

- ألديكم سر تخفونه عني؟

كانت هذه هي المرة الأولى منذ قدومي التي أشعر فيها بشيء من الراحة في صدري.

كان البيت في الجزء الخارجي من الكومباوند، وسط سلسلة من الفيلات متوسطة المساحة أمامها سيارات فارهة، والسائقون الباكستانيون يجلسون على الرصيف يدخنون السجائر ويأكلون السندوتشات.

قال "رامي" وهو يُغلق باب البيت:

- ادخلوا، اتركوا الحقائب في السيارة وستقوم الشغالات بإدخالها.

يوجد حمام سباحة في الفناء الداخلي أمام باب البيت، فقال "رامي" وهو يبسط يده كأنه هو الذي قام ببناء البيت بنفسه:

- رائع، وهناك جاكوزي كذلك، هذا ما أردته بالظبط.

فهززتُ رأسي في صمت، في حين أمسكت "ليلى" يد "رامي" وهمست له بشيء فضحكا ووقفتُ أنا أنظر إلى حمام السباحة واضعًا يديَّ في جيبيَّ.

كان من الممكن رؤية ما بداخل البيت، لا توجد مساحة إلا في غرفة المعيشة، حيث يوجد تليفزيون كبير معلّق على الحائط تُعرض على شاشته حفلة مُسجَّلة.

في تلك الأثناء، حضر الجميع، "عمر" وزوجته وعمي "خالد" وعمتي "بسمة" وباقي أبناء وبنات أعمامي، فوزعهم "رامي" على ست غرف نوم، وأنصتُّ أنا قليلًا، فسمعت ضجيج العائلة الذي بدأ بالظهور.

كان في غرفة المعيشة بابًا جرارًا يوصل إلى حديقة صغيرة مفتوحة على البحر يفصلها عن أرض الجيران سور من نبات الجهنمية والورد، كما توجد كراسي من القش وشمسيات. ويبدو أن هناك من جهَّز ثلاثًا من الشيشة قبل وصولنا.

خلعتُ حذائي، وذهبت ببطء إلى البحر، وغاصت أصابع قدمي في الرمال الدافئة الناعمة. كانت الشمس على وشط الغروب، والسماء ملوَّنة باللون الأحمر والأصفر والبنفسجي. على الشاطئ بعض الأرائك والشمسيات ولعبة أطفال ملقاة، ومن بعيد يظهر ضوء الميناء، والبحر تعلوه أمواج هادئة مع هواء الليل الدافئ لدرجة ينسى معها الإنسان أين يقف في هذا العالم الواسع.

تختلط مجموعتان من الأصوات قادمتان من البيت خلفي، صوت الموسيقا القادم من التليفزيون وصوت أحاديث مرتفع.

أغلقت عيني، وتنفست الهواء الدافئ، فسمعت صوت "عمر" يقول لي:

- "باسل"! "باسل"! يا باشا، هيا نذهب لإحضار الأكل، يمكنك السباحة في وقت آخر.

ظهر "عمر" بجواري وهو يرتدي شورت هاواي مُشجَّر وتيشيرت جامعة "ميشيجان" وشبشب زنوبة أخضر.

قال لي وهو يشير إلى البحر ويعطيني سيجارة:

- لا يوجد مثل هذا عندكم في ألمانيا، أليس كذلك؟

فقلت له وأنا أُشعل السيجارة "المارلبورو":

- لدينا ميناء ونهر يصبُّ مباشرة في البحر.

فقال "عمر":

- لدينا هنا ميناء أيضًا، ولكن لا يمكن السباحة بالقرب منه، هيا بسرعة، يمكنك قيادة السيارة.

ذهبنا بالسيارة خلال الكومباوند المضاء بأنوار مبهرة إلى ممشى الميناء، ومررنا على محلات صغيرة تبيع كرات البحر ومراتب هوائية، وعلى المانيكان يتم عرض ملابس بيكيني ملوَّنة.

في المطاعم، تجلس السيدات والفتيات يدخِّنّ الشيشة بلا حرج مع عصير كوكتيل الفواكه، وفي مكبرات الصوت، نسمع أصوات أغاني بوب من تسعينيات القرن الماضي.

تركنا السيارة، وسرنا إلى أحد المحلات. كانت توجد أعلى البار لافتة مضيئة عليها دعاية لأكلة لبنانية مشوية، ومن مسافة بعيدة، رأيت فرنين عظيمين تخرج منهما النار وتفوح منهما راحة اللحم المشوي.

جلسنا في تراس المحل؛ لأن طلباتنا لم تكن جاهزة، وقدم لنا صاحب المطعم كوبين من الشاي، وقال لنا وهو يمد يده إلينا ويتبادل الاحترام مع "عمر":

- هذا من أجل الانتظار.

جلست على المائدة المجاورة لنا مجموعة من المراهقات - لو وُجدوا في ألمانيا في حي "سانت نابولي" فلن يلفتن الأنظار إليهن – يرتدين نظارات كبيرة وسماعات رأس كبيرة، وكل منهن منشغلة بتليفونها الـ"آيفون"، ويتحدثن بالإنجليزية والعربية في الجملة نفسها ويصورن أنفسهن ووجباتهن. جلست إحداهن تكتب في مفكرة سوداء رفيعة.

جاءت فتاة أخرى فجأة وجلست مع الأخريات، ثم نظرت باتجاهنا ولوَّحت بيدها وصرخت قائلة:

- في حاجة؟!

ودبَّت الحركة فجأة بين مجموعة الفتيات. حيث ارتدين العبايات وسماعات الأذن بسرعة، وبعضهن دخل إلى المطعم، حيث وقفن واختفين وراء منطقة الرجال في المطعم، وتركن وراءهن بعض كوكتيل الفواكه الملون والبطاطس.

ارتعشت كتفا "عمر" وبدا عليه الاندهاش وقال:

- حاجة! بالتأكيد تقصد هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبعد لحظات، حضرت في الممشى دورية هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برجالها ذوي اللِّحى والجلابيب البيضاء، وقام أحدهم باستدعاء إحدى الأمهات صغيرة السن ووجه لها تحذيرين بأنها ستدخل النار لأنها تقود العجلة مع ابنها الصغير في مكان مفتوح، فهزت الأم رأسها وأكملت ما تفعله.

رآنا رجلٌ آخر تابع للدورية ونحن جالسون في التراس شبه الخالي للمطعم فهمس في أذن زميله بشيء ما ثم توجها إلينا، واستمعت فقط إلى ألفاظ مثل:

- حرام، منطقة عائلات، خلف الحائط، اخجلا من أنفسكما، أتريدان النظر إلى النساء؟

أخرجت التليفون الخاص بي لا إراديًّا لألتقط صورًا للرجلين وأرسلها لـ"أليكس" و"ليلى" حتى يضحكا عليها ضحكًا هستيريًّا، إلا أن "عمر" وضع يده على ذراعي وأنزله بالأسفل، وقال لي هامسًا:

- لا تنسَ أين أنت.

وللحظة، لم أدرِ أكان "عمر" يمزح أم أن الأمر بهذه الجدية؟

وفي تلك الأثناء، تحدث أحد العاملين في المطعم مع الرجال ذوي اللِّحى لبعض الوقت وكان يلوح بيده ثم نظر الرجلان إلينا وسلمَّا على العامل.

نظر "عمر" إليَّ نظرةً صارمة، ثم ضحك وقال لي:

- لا تخف يا باشا، هنا لا يجب أن تقلق. فهؤلاء يحاولون فرض سيطرتهم هنـا، فـلا تُظهِـر الخوف، تمامًا كما تفعل مع الكلاب.

ثم قام من الكرسي وقال:

- تعالَ معي، فقد حان وقت استلام الطعام.

بعد تناول الطعام، جلستُ أنا و"ليلى" على الشيزلونج أمام البحر مباشرةً، وفوقنـا سلـسلة أضواء مُعلقة. عكست الأضواء حالة من الهـدوء والـصفاء النفـسي. كـان الآخـرون قـد نـاموا، باستثناء "عمر" و"رامي" اللذين جلسا أمام التليفزيون الكبـير يلعبـان "الـبلاي ستيـشن" لمـدة طويلة ويتبادلان اللعنات. أما أنـا و"لـيلى" فظللنـا ننظـر إلى البحـر وهـو يـصطدم بالحجـارة والطوب فتتفرق مياهه.

قالت "ليلى":

- لقد كرهت المدينة، بكل مساوئها، وبكل ما تفرضه. لقد كرهت أنهم دائمًا ما يقولون لنا إننا نتمتع بأفضل ما في هذين العالمين، يقولون إننا اسـتلهمنا الأفـضل فقـط لأننـا انغمـسنا في ثقافتين، إلا أن معظم من نقابلهم يريدون منا دائمًا أن نتحيز إلى جانبٍ واحدٍ فقط ويبحثـون فقط عن المألوف بالنسبة لهم، ولكنهم لم يصرِّحوا بذلك. لن يصرِّح أحد لك بأن هـذه المأسـاة ستنتهي وأننا لن ننتمي إلى الثقافة المناسبة لنا.

نظرتُ إليها، وكان نصف وجههـا في الظـل، إلا أن عينيهـا كانتـا تلمعـان، تُعـد هذه هي المرة الأولى في كل تلك الأيام التي تتحدث "ليلى" فيها بشيء يتوافق مع

قناعاتي. كانت من قبل تشرح وتتعمق في الشرح وتُنظم وتضحك برفق، إلا أنها في هـذه المـرة تحدثت بقرب وبصوت عالٍ وبحماسةٍ. وعلى الرغم من ذلك، فلم يفارق نظرها البحر.

وأكملت حديثها قائلةً:

- ثم يطرحون أسئلةً غبية مثل: "يا إلهي، أتمتلك عائلتكِ مصادر بترول؟" وأيـضًا: "إنـكِ مـا زلت صغيرة لدرجة أنك لا تستطيعين الزواج؟" ومـن المُفـترض دائمًـا أن يكـون الجانـب الـذي تختاره هو الأفضل، ويجب علينا أن نُفضِّل الطريق الوسط الذي يؤدي إلى الأحسن.

أخذتُ رشفة من عصير المانجو، وجزعت من كثرة السكر بـه، فحتـى العـصير هنـا سُـكَّره زيادة.

بالطبع "ليلى" لديها حق فيما قالته، إلا أنه جعلني غاضبًا. فسألت بكل تكبر وأنا متكئ:

- هل كل شيء في ألمانيا سيئ جدًّا؟

كان يجب أن أُفكر في "باربرا"، التي تجلس في مطبخها تُدخن السجائر وتلعب البازل، وفي "يوليا"، التي لا تجرؤ أن تقول لي إنها تريد علاقة حقيقية، وفي "ألـيكس"، الـذي لا أعلـم شـيئًا عنه منذ شهور لأن حكايات أختي أصبحت في النهاية ثقيلة بالنسبة له ففـضل أن يبتعـد عنَّـا حتى لا يتعطل.

أتانا من غرفة المعيشة صوت ضحكات وأصوات سباق "الفورميلا 1".

قالت "ليلى":

- ألا يجب أن أوضح لك ذلك يا "باسل"؟ إنه من السخف الشديد أن يقولوا: "رائع جدًّا أن لديكم ثقافتين". لا أحد يريد أن يفهم. لقد ضيعت الكثير من الوقت مع أناس كانوا يريدون إقناعي أنني مخطئة ويريدون مداواتي لأنني لا أرى النعيم الذي أنا فيه. سوف يصل هؤلاء أنفسهم إلى حقيقة أنه ليس هناك من يعيش في نعيم مطلق. إنهم لا يشعرون بك كما تشعر أنت بهم. إنهم يجدونك جذابًا ولكنهم لا يتفهمون انكسارك.

احمرَّ عنق "ليلى" تمامًا كما يحدث دائمًا عندما تغضب، وصنعت بقدميها الحافيتين دائرة في الرمال واستمرت في تجنبها النَّظرَ إليَّ.

وأكملت قائلةً:

- لقد كرهت قولهم: "يا له من شيء رائع! يا له من شيء ممتع"! يجب عليهم أن يتركوني وشأني، فأنا لا أريد سماع هذه الكلمات مجددًا. وكل من هنا لا يعلمون شيئًا عن حياتي السابقة وكيف تربيت، ولكن ذلك لا يهمهم. لقد تقبلوني على هذا الوضع، وعندما يبدو لهم مني شيء غير مألوف بالنسبة لهم، تراهم يهزون أكتافهم ويقولون: "إنه عِرقها الألماني".

فقلتُ لها:

- أنا لا أفهم ذلك، الآن تنظرين إلى الأمور بهذه الطريقة، أين كان تفكيرك من سنة أو...

فقاطعتني وقالت:

- بالتأكيد يوجد في ماضي كل إنسان خيارات أكثر من خياراته الحالية، وبالأخص في حياة المرأة، ولكن بِمَ يفيد الندم! بِمَ يفيد كونهم صامتين وباردين على الرغم من حريتهم التي يتمتعون بها، ودائمًا ما يكررون الأشياء نفسها، بمَ تفيدني كل تلك الإمكانيات إذا لم ينشئوا ترابطًا بينهم، ما فائدة أن يظل الإنسان وحيدًا في مدينة قمعية صغيرة لأنه يعرف أشياء كثيرةً جدًّا، وألّا يتمتع الإنسان بحريته المطلقة لأنه دائمًا يجب عليه أن يقرر ويسعد بقراره. ما فائدة أن تؤكد لهم دائمًا مدى سعادتك وتقديرك لأنك هنا؟ إن مشاعرهم لها ثمن وهو العرفان الأبدي من أجل أن تحظى بمشاعرهم الكاذبة. أيجب عليَّ أن أنحني للأبد لأنني نشأت في هذا المكان المُوحل الصغير مع أشخاص ثُقلاء على القلب يعتقدون أن أمي رحلت بنا ونحن طفلان في أثناء الليل هربًا من زوجها الهمجي؟ أتعلم كم من المرات استمعت إلى هذه القصة؟ كانوا يقولون: "نعم، السعودية، تمامًا كما حدث في فيلم "ليس بدون ابنتي" "Nicht ohne meine Tochter" ربما يدفعني ذلك إلى التقيؤ يا "باسل". من الذي سألك كيف سارت الأمور وكيف كان شعوركما في طفولتكما؟ من الذي يريد أن يفهم؟ إنهم يفكرون دائمًا ويعرفون كل شيء، كما كوَّنوا صورة عنك بمجرد أن سمعوا اسمك فقط. لقد قضيت النصف الأول من حياتي أشبه بدُمية أميرة الصحراء

المُريبة بعينيها الكبيرتين والهرم في فناء الحديقة، ثـم حـدث مـا حـدث في الحـادي عـشر مـن سبتمبر وتحولنا جميعًا إلى إرهابيين، ولم يكد يوجد قبل ذلك التاريخ من يعـرف الإسـلام، وكنَّـا ضمن الوافدين من بلدٍ تركب الجِمال، وأنت أيضًا يا "باسل" شاركت في هذا الوحـل، لا تنظـر إلي و كأنني أتوهم، لقد وجدتُ نفسي فجأة أدافع عن ارتداء الفتيات للحجاب على الرغم من أنني لم أكن أريد ارتداءه، لقد شعرتُ فجأة أنني مجبرة على الدفاع عن ديـن لا علاقـة لي بـه، لكنه فُرض عليَّ، لقد قال السبَّاك ذات مرة: "إنك تتحـدثين الألمانيـة جيـدًا" وسـألني إذا كنـتُ أعرف هؤلاء الإرهابيين الذين جاؤوا من جامعة "هامبورج".

ثم انحنت "ليلى" وأمسكت بقطعة حجر وألقتها في الماء بكل قوة.

ثم أكملت قائلة:

- لقد وجدت هنا موطنًا حقيقيًّا يا "باسل"، يمكنني أن أنطلق منه إلى كل مكان ثم أعـود إليه مجددًا، ولا يوجد هنا أحد يريدني أن أقرر ما يخالف رغباتي.

نادى "رامي" من التراس قائلًا:

- سنذهب للنوم، اعتنِ بعروستي يا أخي.

فأشرت إليه بإبهامي. ولمَّا التفتُّ، وجدت "ليلى" تنظر إليَّ للمرة الأولى وعيناها مكسورتان وحمراوان.

ثم أكملت كلامها قائلةً:

- أنت تسير مع التيار دائمًا يا "باسل"، أو تبتعد وتتفادى الاصطدام به، لقد تجمَّد فكرك ومشاعرك مثل أمي، لأنك لا تعلم طريقك. قف في وجه التيار يا "باسل"، وافعل شيئًا لحياتك، خذ قرارك. لقد انسحبت "باربرا" من الحياة منذ وقت طويل، أتريد أن تكون مثلها؟ أتريد ذلك؟

أردتُ أن اعترض على كلامها، ولكنها أمسكت بيدي وضغطت عليها. ثم قالت:

- في حياتنا القديمة لم نعش أي شيء جميل يا "باسل"، لم نختبر دفء المشاعر، العلاقات هناك قائمة على الحدود وفلترة الأشخاص، لماذا لا يوجد أحد هناك يصرح بحقيقة مشاعره؟

بدأت يدها ترتعش وتنفست بعمق مرتين أو ثلاثًا شهيقًا وزفيرًا قبل أن تُكمل كلامها قائلةً:

- بعد تجربتي مع "أليكس"، تكونت لديَّ مخاوف من أن ينتابني هذا الشعور، ثم جئت إلى هنا حيث أعطوني حريتي، فلا يهم ما ينقصني هنا وما لا يناسبني.

فقلتُ لها:

- لم يكن بجانبنا شخص قادر على مساعدتنا ليوضح لنا كيف نتعامل مع الحياة عندما تكون بلا معنى.

فنظرت "ليلى" بطرف عينها في تشكك وقالت:

- لكنك كنت بجانبي دائمًا، لقد كنا نشعر ببعضنا دائمًا.

قلتُ لها وأنا أشعل سيجارة وأحاول نفخ الدخان المتطاير منها ليصنع أشكالًا دائرية في الهواء، إلا أن "أليكس" فقط يمكنه فعل ذلك:

- في بعض الأحيان لا أعلم حقيقة شعوري.

لم تكن "ليلى" تنطق اسم "أليكس" صراحةً، وكذلك الحال منذ زمن بعيد، وكأنه سر خطير لا يُسمح لأحد أن يعرفه حتى إن "ليلى" نفسها تكاد تكتمه عن نفسها، حتى لا يعلم أحد أن هناك علاقةً ما كانت بينهما. حيث كانت تقول "ليلى" عادةً: "هل هو هنا؟" "هل رأيته؟"

لدينا الكثير من الصور لهما معًا في إجازة أو في أثناء رحلاتنا، يتضح على "ليلى" فيها شغفها بحبه، ويظهر خجلها وانكسارها في ابتسامتها أمام الكاميرا، كما يظهر تحفظ "أليكس" وتقلُّص وجهه وتكشيرته المرسومة. وكان يمسك "ليلى" في الصور بشدة وكأنه يملكها أو كأنها جزء من جسمه. حيث يضمها بذراعيه الطويلتين ومنكبيه العريضين ويحصرها بينهما مستغلًّا طوله الذي يقترب من المترين، كيلا يصل أحد إلى "ليلى" ولا يحدث لها مكروه، فهو يحميها.

قالت "ليلى" بصوتٍ منخفض:

- سألتُ "أليكس" ذات مرة عن أمنياته فأجاب: "أن تجدي من يحبكِ ويحبني أيضًا". لقد كان يضع نفسه دائمًا في مأمن.

أخذت "ليلى" سيجارة من علبتي ونظرت إلى البيت لتتأكد أن جميع الأنوار مُطفأة وأن عماتي جميعهن نائمات، ثم أشعلت السيجارة.

ثم أكملت قائلةً:

- لا أعلم لماذا كنا دائمًا نتعامل بعنف مع بعضنا البعض، لقد كنا نعلم أننا نحب بعضنا البعض، ربما كنا نعتقد أننا لا نستحق هذا الحب، أو ربما أخطأنا في فهم هذا الحب، واعتقدنا أن الحب يتلخص في شرب الويسكي والتدخين والحديث عن الكتب أحيانًا والخسارة المشتركة. ولكنه كان يتفهم دائمًا أن الغضب والحزن لا يضيعان عندما يغيب الإنسان عن الأشخاص والأماكن. لقد أدرك كم يتكلف ذلك من طاقة، فلم أكن في حاجة إلى أن أشرح له. ولكن في النهاية، يجب أن يتمسك الإنسان ويُحيي الأمل في وجود ما هو جميل في الحياة، على الرغم من كَمٍّ المعاناة التي يواجهها.

فقلت لها:

- "أليكس" لم يخلط بين الحب والامتلاك.

فأومأت "ليلى" برأسها وقالت:

- بل لقد فعل ذلك، ولذلك كان يجب عليَّ الرحيل.

سألتها:

- هل تفتقدينه أحيانًا؟

فأجابت:

- لم أعد أفتقده، أفتقد فقط أحيانًا فكرتي عنه، أتفهمني؟ إنني أفتقد وجود هذا الشخص الرائع المتألق الذي كان يُشغل تفكيري، أفتقد التفكير في هذا

الرجل المُحب خفيف الظل الذي كنت أُحبه، ثم أرى أمامي صورته الحقيقية التي لا يستطيع فيها التعامل مع عواطفه الشخصية أو عواطفه تجاه الآخرين، أرى أمامي شخصًا يتكلم دائمًا فقط وقد تعلَّم الاعتناء بالآخرين لكنه لم يتعلم الحب، شخص يتجنب الاستماع لمشاعره. لكنني أفتقد أحيانًا تلقائيتنا، ربما لأننا كنا نريد أن نكون لبعضنا البعض. إن الثمن غالٍ دائمًا. ربما تكون علاقتي مع "رامي" غير قوية، لكننا نتفهم بعضنا البعض ونتوحد مع بعضنا البعض، وهذا أهم مما تتخيله.

كنت أعلم تمامًا ما تقصده "ليلى"، فلم يكن "أليكس" يعتني بأشيائه قط، لذلك كانت تضيع منه دائمًا، كالهدايا التي لا يعيرها اهتمامًا ويتعامل معها ببرود، فتختفي فجأة. وكان ذلك يغيظني دائمًا لأنه لم يكن يعتني بـ"ليلى" أيضًا، ولأنني أُحمله مسؤولية رحيل "ليلى" فجأة بين عشية وضحاها، حيث حزَّمت أمتعتها ورحلت وتركتني وحيدًا مع "أليكس" وأشيائه التي تضيع منه. أُحمله مسؤولية وجودها هنا وأنها بعد أيام قليلة ستتزوج وتنتقل إلى حياة جديدة ومختلفة تمامًا ليس لي مكان بها.

سألتها:

- هل ودعتِه؟ هل يعلم أنكِ هنا وأنكِ ستتزوجين؟

فقالت:

- فكرت طويلًا هل يجب عليَّ أن أكتب إليه؟ مرارًا وتكرارًا، أنت تعلم ذلك. لكنه لم يبحث عني قط، لقد رحلت في أحد الأيام وهو تقبَّل ذلك.

قلتُ لها:

- لم يكن يعلم أين يجدكِ.

فقالت:

- إنه شيء سخيف، كان يمكنه أن يكتب إليَّ أو أن يسألك، فأنت تعرف رقمي في أي مكان أذهب إليه. هل سألك؟

هززتُ رأسي بلا، وأومأت "ليلى" برأسها وقالت:

- اعتقدت طويلًا أن رحيلي لا قيمة له عنده، كنت أفحص يوميًّا الإيميل والبريد وتليفوني الألماني، ولم أجد شيئًا، ثم تقبَّلتُ انقطاعنا عن بعضنا البعض؛ لأنه لم تكن هناك محادثة بيننا بأي طريقة. ومع الوقت، بدأ يصغر في نظري ويقلُّ. ثم فكرت لماذا يجب عليَّ أن أتراجع عن ذلك، فأنا أعلم رد فعله.

كنتُ أعلم أنها مُحقة، فمنذ انتقال "أليكس" إلى مسكنٍ آخر، لم يتواصل معي، وقبلها كنت قد ضبطته في مرة وهو يقرأ أحد كروت البريد الذي أُرسلته "ليلى" إليَّ وكان موضوعًا على الكومودينو في مدخل الشقة بين كومة من كروت البريد. قرأ الكارت فقط ووضعه في مكانه. تخيلت أنني رأيت الحزن على وجهه، ولكنه كان مجرد تخيل لأنني تمنيت أن يرى هو و"ليلى" الحزن الذي يسببانه لبعضهما البعض.

قالت "ليلى" بالعربية:

- اذهب للنوم يا أخي، فغدًا تنتظرك أشياء جميلة، كالشمس والأكل والضجيج، وعندما يمر هذا الوقت، ستفتقده كثيرًا، أنا أعي تمامًا ما أقوله لك.

أخضر



أصبح الجو بالخارج أكثر دفئًا، حيث كان تساقط الثلج قد توقف قبلها بأسابيع قليلة، وأصبحنا نذهب إلى المدرسة بأحذية رياضية، وتوقفنا عن ارتداء البوت والمعاطف السميكة.

كنَّا نقضي الإجازات الأسبوعية بشكل شبه دائم في حديقة جدَّينا. بدأت "باربرا" العمل في أحد المستشفيات، حيث تعمل في بعض الأحيان ليلًا، وكانت تقول إننا في حاجة إلى المال.

تقع الحديقة بين عدد كبير من الحدائق الصغيرة، وخلفها الشارع الكبير المؤدي إلى محطة القطارات. وكانت الطرق بين البيوت من الحصى والزلط،

لذلك لم يكن بإمكاننا ركوب العجلات، كما أن الحدائق الأخرى كانت مُحاطة بأسوار ولا يوجد أي أطفال آخرين.

بنى جدي بيتًا صغيرًا في الحديقة كنا نبيت فيه أحيانًا، وكانت جدتي تجلس على كرسي الحديقة البلاستيك في ظل البيت دائمًا وهي ترتدي مريلة وتُعلق منديلًا قماشيًّا في فتحة الصدر وتقطع الفاصوليا أو أي نوع من الخضار أو تقشر البطاطس في وعاء بلاستيك كبير. كانت "ليلى" تجلس بجانب حوض الزرع ومعها الجاروف وتدفن شتلة زرع وتُخرجها مرة أخرى، وتسقي الزرع مرات عديدة وتطرق بيدها على الأرض وتمسح برفق على أوراق الشجر.

كنت أجلس غالبًا على قطعة حشائش رفيعة أُقلِّب صفحات مجلة كرة القدم الخاصة بجدي، ولم أكن أعرف أسماء الفرق ولا اللاعبين، إلا أن زملائي الآخرين في الفصل كانوا يعرفون أسماءهم جميعًا ويرتدون القمصان الخاصة بهم في حصة الألعاب، وفي الشتاء، يضعون الكوفية الخاصة بالفرق سواء كانت الزرقاء والبيضاء أم الصفراء والسوداء أم الحمراء والبيضاء.

وكان في الحديقة بيت للطيور قد بناه جدي بجانب البيت. ففي إحدى المرات في الصيف، عندما كنا نقضي الإجازة في ألمانيا قبل أن نعود مجددًا إلى بيتنا، كان بيت الطيور ما زال مكشوفًا وقد بُنيت قاعدته فقط، لذا فبين الحين والآخر، كان أحد الطيور أو العصافير يضل طريقه ويأتي إلى هنا ويأكل من الحبوب التي كنا نضعها فيه.

كبرت نباتات البيت، واخضرَّ نبات اللبلاب، وأصبح البيت شبه مخفي بين أوراق الأشجار باستثناء السقف الذي يمكن رؤية ألواحه، إلا أن الطيور كانت تعرفُ

مكانه، حيث تطير إلى نبات اللبلاب ويزيحون أوراقه ليبحثوا وراءها عن الطعام. كانت "ليلى" تحمل فتافيت الخبز وتلقيها على أوراق النباتات وعلى سطح البيت، ثم تستند إلى حوض الزرع وتنتظر حتى تجد العصافير والطيور طعامها.

كنا نأكل كعكة الفراولة أو كعكة التوت أو كعكة الجبنة التي تُحضرها جدتي معها، كما يُسمح لنا أن نشرب معها فنجانًا صغيراً من القهوة بالحليب ونأكل كعك الفانيليا. سقط أحد الدبابير للمرة الأولى على حافة الطبق فسألت "ليلى": ما هذا الحيوان؟ فلم نكن في وطننا الأول نعرف الدبابير".

كنتُ أسير مع جدي في الحديقة في أحد الأيام بعد الظهر، في حين كانت "ليلى" وجدتي يُخرجان أكياسًا بلاستيكية من السيارة، حيث كنا قد أحضرنا السلطات ونريد بعد ذلك شَيَّ "الهوت دوج" وخَبْز البقسماط.

تجمَّع بجانب بيت الطيور سربٌ من الذباب وتعالى صوته، وعندما اقتربتُ منه، طاروا جميعًا ورأيت طائرًا صغيراً ميتًا على الحشائش، عيناه مغلقتان ومنقاره مفتوح وقدماه معلقتان في الهواء كأنه سقط من سطح بيت الطيور. جلست بجانبه على الحشائش ودفعته بإصبعي لكنه لم يتحرك. خرجت ذبابتان من جثته عندما حركته، وطارتا بعيدًا.

سمعت صوت جدي على بوابة الحديقة ينادي على جدتي ويخبرها أنها يجب أن تقفل السيارة.

وقفت وجريت باتجاه بوابة الحديقة حيث يقف جدي الذي غادر البوابة وسار في الشارع الممتلئ بالحصى، وكذلك فعلت "ليلى" أيضًا. دخل الحصى في صندلي البني وبين أصابع قدمي، وكانت حواف الزلط تنغزني في باطن قدمي.

قلت لـ"ليلى" حين وقفت أمامها:

- ليلى! أعطني أليكس وانتظري هنا، حسنًا؟ يجب أن أفعل شيئًا.

فنظـرت إليَّ بعينيهـا الواسـعتين وأومـأت برأسـها في صـمت وأعطتنـي ألـيكس ورجعـت خطوتين إلى الخلف، فقلت لها:

- سآتي حالًا وأصطحبكِ معي، لا تتحركي من هنا. حسنًا؟

جريـت إلى داخـل الحديقـة وحملـت ألـيكس و"الهـوت دوج" وأخـذت جـاروف "لـيلى" الموضوع في حوض الزرع، ووضعت جثـة الطـائر عـلى الجـاروف وذهبـت بهـا خلـف البيـت ووضعتها على كومة من الأعشاب حتى لا يزعجها الذباب مرة أخرى، وغطيتها بـأوراق شـجرة التفاح. وضعتُ حول كومة الأعشاب بعض الحجارة ونثرت بعض الأعشاب عـلى جثـة الطـائر، وبذلك فلن تلاحظ "ليلى" شيئًا ولن تفزع، وأيضًا سترقد جثة الطائر في سلام.

عُدتُ إلى الشارع الممتلئ بالحصى أمـام الحديقـة، ورأيـت كيـف تحـاول جـدتي أن تأخـذ "ليلى" معها إلى داخل الحديقة، إلا أن "ليلى" كانت تنظر إليها وتهز رأسها بلا وتضم يـدها إلى صدرها. وعندما رأتني ألوِّح لها، هزت رأسها وتحركت باتجاهي.

قالت جدتي:

- هل يمكن أن يشرح لي أحد ماذا يحدث الآن؟

فأجبتها:

- لا شيء، كان يجب أن أفعل شيئًا سريعًا.

مكة



ذهبنا إلى مكة، حيث قال عمي "خالد" إننا يجب أن نفعل ذلك:

- لازم، العائلة هناك تريد رؤيتك.

كما قال إنه من المهم قبل حفل الزفاف أن نزور الحرم ونسأل اللـه البركة والمعونة. كـان أحد أعمامي ما زال على قيد الحياة في مكة حيث يعيش مع زوجتيه وأولاده وأحفاده، وكانت الشقيقة الوحيدة لأبي وعمي "خالد" - عمتي "سلمى" - قد ماتت منذ سنتين.



كانت زيارة مكة في طفولتنا ثقيلة على قلوبنا، حيث كنا نريد حتى آخر لحظة تعطيل زيارة العائلة. وفي إحدى المرات، ادَّعت "ليلى" أنها متعبة وهي في طريقها لركوب السيارة حتى لا تذهب معهم. كانت مكة تمثل لنا ونحن في جدة عالمًا آخر، الشقق فيها صغيرة وبسيطة والحجرات رائحتها كريهة. لم يكن في بيت عمي "خالد" فصل بين الذكور والإناث، حيث يجلس الرجال في الصالون الكبير تمامًا كما تفعل السيدات ويلعبون الكوتشينة ويدخنون الشيشة.

إلا أن الأمر في مكة لا يمكن تصوُّره، حيث كان يجب عليَّ وعلى "ليلى" أن نفترق عند مدخل بيت عمي "فيصل"، فكنت أصعد مع أبي عبر سلم خارجي إلى التراس حيث يتجمع الرجال حول شيشة صدئة. وكانت "ليلى" تنظر إليَّ دائمًا في تشكُّكٍ وهي ممسكة بيد "باربرا" وتختفي وراء الباب إلى غرفة المعيشة. وفي وقت لاحق تقول "ليلى":

- إنهم جميعًا مضحكون يا "باسل"، فالفتيات لا يرفعن حجابهن، ووسائد المقاعد مبللة، كما أن لديهم لُعبًا غبية، بالإضافة إلى أنني يجب أن آكل جميع الحلوى المثيرة للاشمئزاز. أتعرف هذه الحلوى ذات الغلاف البمبي التي تلتصق في الفم وطعمها كورق الكرتون؟ إن عمتي "بسمة" تضعها في شنطة يدها وترميها في الشارع قبل أن تركب السيارة، لقد رأيت ذلك آخر مرة.

كنتُ أشارك "ليلى" انزعاجها، فحتى بالأعلى عند الرجال، يكون المجلس كئيبًا، فأولاد عمي في جدة لديهم أحدث ألعاب الكمبيوتر، وكنا نلعب في الفناء كرة القدم أو الاستغماية. وفي جدة، يجلس الأولاد ملتصقين في آبائهم ويُحرِّكون السِّبحة

المصنوعة من الزجاج أو الكهرمان ولا يتحدثون مع بعضهم إلا نادرًا. وأحيانًا يكون مع أحدهم كوتشينة ولكنهم لا يتفقون على لعبة واحدة يريدونها، فنظل جالسين بجوار بعضنا البعض في صمت، كما توجد مشروبات مثل عُلب ميرندا برتقال أو الكولا كثيرة السكر التي يختلف طعمها عن تلك التي في بلدنا.

كان تراس السطح مفروشًا بسجاد قديم، والخدَّام الباكستاني يحضر كل ساعة ومعه جردل شاحب اللون ممتلئ بالفحم لإشعال الشيشة من جديد. وفوق التراس، توجد ناموسية لإبعاد الحشرات والشمس وحجب رؤية البيوت المُحيطة. كنَّا نسمع صوت الأذان القادم من الحرم في تلك المدينة القديمة وهو قادم من وراء الهضاب المتشابكة، حيث يعلو صوت المؤذن لعدة دقائق ويتضح من بين الأسطح وهو يدعو إلى الصلاة. أتذكر أن هذه اللحظة كانت اللحظة المبهجة الوحيدة في بيت عمي "فيصل".



انطلقتُ من جدة بصحبة عمي "خالد" الذي يقود السيارة و"ليلى" وعمتي "بسمة" اللتين تجلسان في الخلف. كانت السيارة "اللكزس" ما زالت جديدة، ودواسات السيارة ما زالت مغلفة بالبلاستيك والتابلوه يلمع وكأنه من خشب الماهوجني اللامع. كما كانت اللوحات على الطريق مكتوبًا عليها "مكة المكرمة" ومرسومًا بجوار الكتابة شكل الكعبة. بدأت المدينة من حولنا تختفي شيئًا فشيئًا، وبدأنا نسير بين الصحراء، حيث الصخور المترامية على اليمين واليسار. وبعد نحو نصف ساعة، مررنا بقاعدة عسكرية.

قبل مدخل مكة، افترق الطريق السريع إلى أربع حارات، ولا أعتقد أن الطريـق في المـاضي كان بهذا الشكل، حيث لم تكن به أي عوامل أمان. كما توجد حـارة منفـصلة للباصـات تقـف فيها باصات الرحلات وتنتظر، وكان الطريق أمامنا مزدحمًا.

سألنا عمي "خالد":

- هل معكما جوازا السفر؟

التفتُّ إلى "ليلى" ونظرت إليها متشككًا. ولم تكن "ليلى" ترتدي الشال الفاتح المنبسط على رأسها دون أن تقوم بلفه، وإنمـا كانـت ترتـدي عبـاءة سـوداء بحجـاب كامـل، وتحتـه بندانـة حجاب لامعة بيضاء تشد الشعر بأكمله ابتـداءً مـن الجبهـة حتـى إنـه لم تبـقَ خـصلة خـارج الحجاب، كما أنها أغلقت العباءة حتى رقبتها. وضمت يد عمتي "بسمة" بـين يـديها، وكانـت عمتي أيضًا تلتفُّ بالكامل في الثوب الأسود. كنت أرى أمامي "ليلى" أخرى تختلـف عـن تلـك التي تجلس معي في المطبخ بلبس صيفي أزرق ونشرب الويسكي معًـا، وفي المقابـل، كنـت أنـا سعيدًا بالجلابية والغُترة.

قالت "ليلى":

- أنت تعرف بالتأكيد أن مكة يـدخلها المـسلمون فقـط، لـذلك فهـم يفحـصون جـوازات السفر عند مدخل المدينة. إنها مجرد نقطة تفتيش.

نظر أفراد الأمن تجاه سيارتنا وأشاروا لعمي "خالد" بالتوقف. في هذا الوقت، بدأت الشمس تشرق وتحولت السماء إلى اللون الذهبي مع الجو الممتلئ بالتراب. وكان أحد الشوارع الجديدة بعد نقطة التفتيش بقليل يؤدي مباشرة إلى الحرم، ووجدنا أمامنا بوابة عملاقة من الفولاذ والرخام تمتد إلى جانبي الشارع بحاراته المرورية الست ومكتوب عليها بعضًا من آيات القرآن. كما أن حواف الشارع مزروعة بالورود والأزهار، وفي أحواض الزرع، تلعب القطط الضالة الهزيلة. بحثت عن أي علامات عن المدينة القديمة التي قضينا بها طفولتنا، ولكنني لم أجد لها أثرًا.

كانت السيارات تتحرك ببطء شديد، كما يتجول الشحاذون من الرجال والنساء بين السيارات ويطرقون على الزجاج ويمدون أيديهم يطلبون حسنة، وبعضهم يبيع عبوات من مناديل الجيب أو اللبان أو سلاسل الورد. أنزلت "ليلى" زجاج السيارة وأعطت واحدة من هؤلاء بعض المال.

فقالت لها السيدة:

- الله يخليكي يا أختي، الله يباركلك.

أعطت السيدة لـ"ليلى" عقدًا من الياسمين وهي تنحني وتهتز بأعلى جسمها، فشكرتها "ليلى" وردت لها الدعوات بالبركة، في حين نظرت أنا إلى الدواسات الزرقاء بالسيارة.

ظهر أمامنا برج الساعة، كما كان يظهر أيضًا في الإعلام الألماني. يبلغ ارتفاع البرج بضع مئات من الأمتار، ويقع في مركز مجمع فنادق ومراكز تسوق، وبالقرب من المسجد الحرام. أما عن الساعة نفسها، فهي من مجموعة رولكس، كما توجد كتابة باللون الذهبي على وجه الساعة.

كانت باصات الرحلات التي رافقتنا في نقطة التفتيش قد وصلت للتوِّ إلى الجراج الواقع أمام الحرم. نزل منهم المئات من الآسيويين والأفارقة والعرب وجميعهم يبدو مظهرهم فقيرًا، حيث يلتفون في حجاب أبيض أو رداء أبيض، واتجهوا جميعًا إلى الفناء الكبير أمام الحرم. كانوا يحملون أكياسًا بلاستيكية أو صناديق تبريد، وبعضهم يرتدون حول رقبتهم شريطًا مُلوَّنًا لتسهيل تمييز أعضاء الرحلة الواحدة. وكنت أتمنى في تلك اللحظة أن أرى امرأة شقراء ترفع شمسية فوق رأسها. اعتقدت أن "أليكس" كان سيعجبه هذا المنظر لو كان معنا، وتساءلت إن كانت "ليلى" تفكر فيه أيضًا.

سلَّم عمي "خالد" السيارة "اللكزس" لأحد حراس الأمن في الجراج وأخذ تذكرة وقوف سيارة ثم دخلنا المسجد وسط مجموعة من الحجاج الماليزيين. قال عمي "خالد":

- علينا أن نبحث عن "عمر" أولًا، إنه سينتظرنا.

كان يتحرك أمامنا بحيوية ونشاط، حيث تحولت عصا المشي الخاصة به ذات المقبض النحاسي إلى مجرد إكسسوار فقط.

اختلف المكان تمامًا عمَّا أتذكره أيام طفولتنا، حيث تتزين المدينة بالأنوار، كما تجد كل بضعة أمتار لافتة تشير إلى "كنتاكي" أو "ماكدونالدز" أو "ستاربكس". كان برج الساعة يلقي بظلاله على المآذن، وفي كل مكان حولنا، يُخرج الناس التليفون ويصورون أنفسهم أمام أعظم مكان مقدس في الإسلام. تقف السيدات اللاتي تحملن شنطًا ماركة "لوي فيتون" ونظارات شمسية ماركة "كافالي" بجانب السيدات الباكستانيات الراكعات ذوات الحجاب المشجَّر ورسم الحنة على الوجه.

حاولت أن أتواصل مع "ليلى" بالنظرات، إلا أنها كانت تضع ذراعها حول ذراع عمتي وتسندها ويتحدثان معًا في هدوء. رأى عمي "خالد" "عمر" وبدأ يُسرع الخطى مرة أخرى.

قال لي "عمر":

- يا باشا، هيئتك جميلة جدًّا يا ابن عمي، اذهب بعد ذلك إلى العمل في ألمانيا بهذه الهيئة، لقد صنعنا منك رجلًا سعوديًّا مثاليًّا.

ثم طرق على كتفي وأكمل:

- تعالَ، سنأخذ صورة.

وأخرج التليفون الخاص به من جيبه العلوي ووضع يده حولي، ومدَّ اليد الأخرى للأمام بعيدًا، وسلَّط الكاميرا علينا واضعًا المئذنة في الخلفية، وقال:

- قل "الـلـه"!! رائع جدًّا، سأنشرها على الفيسبوك ويمكنك بعـدها أن تجعـل أصـحابك في ألمانيا يشاهدونها.

مشينا على مهل فوق الرخام المـضيء في اتجـاه المـدخل الـرئيس للمـسجد، حيـث تجمـع العديد من الباعة في كل مكان حولنا يفترشون الأرض بمفارش ويبيعون مـشروبات ومـصاحف وألعاب وبلالين ملونـة. شـعرت أننـي في كنيـسة "هـامبورج" ولا ينقـصها سـوى لعبـة "قطـار الموت". افترقنا عند المـدخل عـن "لـيلى" وعمتـي "بـسمة" اللتـين ذهبتـا إلى الجـزء المخـصص للسيدات لأداء الصلاة. وكان الناس يتدافعون على يمين أعمدة المـسجد ويـسارها للوصـول إلى الماء، كما أن المئات من الأكواب البلاستيكية ملقاة على الأرض.

قال "عمر":

- تعالَ، سنملأ ماءً من زمزم.

يعدُّ ماء زمزم ماءً مباركًا يشفي الأمراض جميعها.

قال عمي "خالد":

- إن زوجة الأمير "نايف" قد أصيبت بالسرطان في العام الماضي، وظلت تـشرب فقـط مـن ماء زمزم مدة أربعة أشهر، والآن شُفيت تمامًا، الـلـه أكبر، الـلـه أكبر.

أومأ لي "عمر" وأعطاني زجاجة بلاستيكية فارغة وهمس قائلًا:

- حتى لو لم تكن مريضًا، ستحتاج وأنت في داخل الزحام أن تشرب شيئًا، آسف، أنا أيضًا أُفضل شرب البيرة، ولكن إن شربتها هنا فستصيبك اللعنة.



ظهر الفناء الفسيح للمسجد خلف الأعمدة. وتذكرت عندما كان أبي يصطحبني إلى هنا كثيرًا، حيث نلفُّ حول الكعبة السبعة أشواط المفروضة علينا، وكان يمسكني في يده حتى لا أضيع منه وسط الزحام، كما كنَّا في نهاية كل زيارة نذهب إلى المشواة في المدينة القديمة، حيث يُعلَّق اللحم البقري على سيخ فوق النار ليتم طهيه ببطء ويتم تقطيع جزءًا تلو الآخر من اللحم ونملأ به أرغفة الخبز العربي.



تحدث عمي "خالد" مع شابٍّ ملتحٍ، وقال "عمر":

- إنه الإمام الذي يقرأ القرآن في الصلاة وأنت تستمع له.

هزَّ الرجل يد عمي "خالد"، ثم قاما بتغيير بعض العملات بشكل غير لافت ثم أشارا إلينا باتباعهما، فقال "عمر":

- هيا بنا.

دخلنا وسط الزحام المحيط بالكعبة. قال رجلٌ أمامنا بصوت واضح عالٍ وهو يرفع يديه بالدعاء:

- الحمد لله رب العالمين.

وكان النـاس يتوافـدون إلى الكعبـة في ازديـاد، وبعـضهم يلتقطـون الـصور ليتـذكروا تلـك اللحظات وليرى العالم الافتراضي تدينهم، وآخرون يهمسون بصوت لا يسمعه غيرهم ويزيحون الناس عن طريقهم ليصلوا إلى الكعبة، والكل يريد أن يلمس كسوة الكعبـة الـسوداء. لم أكـن قد فكرت في ربي منذ زمن بعيد أو لم أفكر فيه مطلقًا، لكنني فعلت ذلك في الأيام الأخيرة.

سمعتُ سيدة عجوزًا في السبعين أو الثمانين من عمرها وجلـدها مجعَّـد وبنـي اللـون ولم يتبقَ من أسنانها سوى اثنتين في الصف الـسفلي، ويحملهـا رجـلان عـلى حامـل أمـام الكعبـة، وكانت تقول:

- مالك يوم الدين، إياك نعبد...

ومدت يدها إلى أعلى وبكت وتنهدت بصوت عالٍ وكأنها تعاني ألمًا عظيمًا، وقالت:

- يا الـلـه، يا الـلـه، الـلـه أكبر.

وفي اللحظة نفسها، سار في اتجاهي رجل يرتدي جلبابًا قـصيرًا كالأصـوليين، وتـصل لحيتـه تقريبًا إلى بطنـه، كـما يرتـدي عـلى رأسـه غـترة دون عقـال. كـان الرجـل يحملـق أمامـه، ولم ينتبه أنه اصطدم بكتفي وكتف "عمر"، وكان يردد القـرآن بـصوت غـير مـسموع. كـما رأيـت بطرف عيني فتـاتين لم تتجـاوزا العـشرين، ترتـديان حجابًـا لامعًـا، وكانتـا تقهقهـان وتـصوران الملتحين.

غابت الشمس وبقيت حرارة الجو الشديدة، كما كنا نشم رائحة العرق وسط الزحام الذي أشعرني بالرغبة في النوم وكأنني سأدخل في غيبوبة، كما كانت الساعة الرولكس تلمع من فوقنا في البرج كأنها البدر.

أخذنا نطوف حول الكعبة، ونردد الدعوات، وكنتُ بين الحين والآخر أشربُ من الماء المبارك البارد الذي يمتلئ طعمه بالكلور. وفي آخر الأشواط، أعطى "عمر" مرة أخرى للإمام بقشيشًا، وودعناه واتجهنا في بطء إلى باب الخروج.

قام "عمر" بإشعال سيجارة بالخارج للمرة الأولى، كما اشترى عمي "خالد" من إحدى الفتيات جوزة هند. وبعد ذلك بوقت قصير، جاءت "ليلى" ومعها عمتي "بسمة" من المسجد، وقامت عمتي "بسمة" بتوجيه الشتائم لـ"عمر" بسبب السيجارة وأخذتها من يده وألقتها على الأرض الرخامية، وقالت له وهي تضربه على كتفه:

- اخجل من نفسك، هل تعلم عدد الناس بالداخل الذين يدعون الله أن يرزقهم الصحة والعمر الطويل، وأنت تقف هنا أمام بيت الله وتقتل نفسك؟! عار عليك!

ركبت "ليلى" السيارة مع عمي "خالد" وعمتي "بسمة"، وركبت أنا مع "عمر"، وذهبنا جميعًا إلى بيت عمي "فيصل" حيث كانوا ينتظروننا على العشاء. سرنا في حارات ذكرتني بطفولتنا، حيث البيوت المتصدعة المُكوَّنة من

طابق ونصف، والبوابات الفولاذية التي تقشَّر لونها. وكان الطريق غير ممهد وبه حُفر كأنها فوهة بركان. سرنا في منحنيات صعودًا وهبوطًا بين هضاب مكة، وداس "عمر" مرة أو مرتين بشدة على الفرامل حتى لا يصطدم بأطفال يرتدون بناطيل مقطعة ويلعبون الكرة أمام السيارات.

كانت هيئة البيت هي نفسها منذ عشرين سنة، فلم تزدَدْ هيئته إلا تواضعًا، وسُلَّمه المؤدي إلى مدخل البيت من الحجارة الهشَّة. وكان عمي "فيصل" ينتظرنا متكئًا على عصاه يسنده شابٌّ في سنِّ "ليلى". أعتقد أن عمي "فيصل" يبلغ من العمر أكثر من تسعين عامًا، فهو من الناس الذين لا تتذكرهم أبدًا إلا وهم في سن متأخرة. وعلى العكس من عمي "خالد"، فقد كان عمي "فيصل" نحيفًا وهزيلًا في جلبابه الأبيض ولحيته البيضاء.

تقدمت "ليلى" وعمتي "بسمة" إلى الأمام، حيث سلمت عمتي على عمي "فيصل" بشكل سطحي، كما عانقت "ليلى" عمي وقبَّلت جبينه، وقال لها في صوت متقطع:

- يا عروسة، ما شاء الله.

كما حيّا "عمر" عمي في احترام، وقبَّل يده وعانقه عناقًا قصيرًا، وقال له:

- يا عمي، هذا "باسل" ابن عمو "طارق"، أتتذكره؟

أقبلت على عمي ومددنا أيدينا في تردد، وترك عمي عصاه تقع على الأرض واتكأ عليَّ وهو يعانقني وقال:

- طبعًا، ما شاء الـلـه، "باسل" ابن أخي، حمدًا لله على السلامة، أهلًا بك في البيت.

أردتُ أن أنحني لألتقط العـصا ولكننـي كنـت بطيئًـا، فقـد قـام الـشاب الواقـف بجـواره بفعل ذلك قبلي وابتسم لي وأدخل عمي إلى داخل البيت، وفي أثناء مروره بجواري مد لي يده، وقال:

- أهلًا، أنا "محمود" ابن عمك، أهلًا بك في البيت، تفضل بالدخول.

للمرة الأولى في حياتي، لم أصـعد الـسُّلم الخـارجي للبيـت أو الـسطوح، وكـان وراء البـاب الممتلئ بالثقوب الذي تقشر لونه ممر صغير، كما أعماني الضوء الساطع من المـصباح النيـون. أجلس "محمود" عمي "خالد" على كرسي متحرك كان موضوعًا بجوار الباب مباشرة.

قال "محمود" لعمتي "بسمة" و"ليلى":

- عمتي، يمكنكم الدخول إلى الصالون بالداخل، حيث أعدت أمي والآخرون الشاي.

ثم أكمل:

- يا "عمر" انتظروا هنا لحظة أخرى، فقد قالت "هبة" إنها تريد أن تسلِّم على "باسل".

نظرت إلى "عمر" متسائلًا، فهمس لي قائلًا:

- "هبة" بنت عمتي "سلمى" رحمها الـلـه.

خرجت امرأة من الباب الذي دخلته "ليلى" وعمتـي "بـسمة" قبـل ذلـك بقليـل، وكانـت ترتدي عباءة سوداء وحجابًا بنيًّا وتضع ماكياجًـا خفيفًـا وعيناهـا حمـراوين. توجهـت نحـوي وبكت بحرارة وعانقتني، وقالت وهي تنتحب:

- يا حبيبي يا "باسل"، حمدًا لله على السلامة، مرحبًا بك في البيت، ليت أمـي كانـت عـلى قيد الحياة في هذه اللحظة.

ولعبت بخدي ثم عانقتني مجددًا. كان جسدها الصغير يرتعش بين يـدي، ولم يكـن يبلـغ طولها ذقني، كما أن دموعها تركت أثرًا في جلبابي.

وأكملت قائلة:

- كان أبوك أقرب شخص لأمي يا "باسل"، لقد كانت تبكي دائمًا وتقـول إنهـا تتمنـى رؤيـة أبنائه، ثم جاءت "ليلى" إلينا وظلت أمي تبكي لأيام طويلة وكانـت تقـول دائمًـا: "طفلـة أخـي العزيز عادت إليَّ، أريد رؤية ابنه أيضًا".

وتركت "هبة" عناقي ومسحت عينيها وأنفها بكُم عباءتها، ثم ضمتني مجددًا وبكت عـلى صدري، وقالت:

- الآن تجتمع أمي مع أبيك، وهما الآن سعيدان لأننا أيضًا مجتمعون.

شعرتُ بغصة في حلقي وارتعشت يداي، ومسحت بيدي على رأس "هبـة" دون أن أعـرف إن كنت قد خالفت بذلك قواعد السلوك أم لا، ورأيت بطرف عيني "عمر" ضاحكًا ويحاول أن يداري ذلك.

أكلنا جميعًا مع رجال العائلة خروفًا مطهوًّا وأرزًا وسلطة على السطوح كالـسابق، إلا أنـه لم يعد سقفه مغطى بناموسية، بل بشمسية. وبعـد الأكـل، لعبنـا الكوتـشينة وشربنـا الـشاي وانصرفنا. اتكأ عليَّ عمي "فيصل" وهو ينزل السلم وأعطاني في خفيـة ظرفًـا، وأردت أن أرفـض ولكنه قال:

- ششش، أنت ابن أخي، إن شاء الـلـه تجد عروسًا قريبًا وتتزوج مثل أختك.

كانت رحلة العودة في سيارة "عمر" مليئة بالصمت، وكـان "عمـر" يـدخن الـسيجارة تلـو الأخرى، وسمعت صوت عمتي "بسمة" تتصل به من السيارة الأخرى وتقول له إنـه يجـب أن يتوقف عن التدخين في أثناء القيادة لأن ذلك خطير، كما وجهت له الشتائم عبر التليفون. أمـا أنا فاتكأت وأغلقت عيني.



طارق



كان في الثامنة عشرة من عمره عندما أعطته أمه الخطاب. لم تعد أمه "خديجة" صغيرة السن، فقد أنجبت تسعة أبناء بقي منهم سبعة على قيد الحياة، وكان زوجها كبير الخياطين في مكة. كما أنها زوَّجت بناتها جميعًا زيجات جيدة واختارت لأولادها الذكور زوجات جديرات بالاحترام. تحمَّل ابنها الكبير مسؤولية محل أبيه بحكم العرف وهو ما جعلها فخورًا به. وكان "طارق" أصغر أبنائها والأقرب إلى قلبها، فكانت تحكي عنه أنه كان حنونًا في صِغَره ولديه عينان ممتلئتان بالحزن حتى إنها كانت تخشى من أنه ربما

أصابته "العين" بسوء. وكانت تقف دائمًا مع أخَواتها أمام سرير الأطفال وتدعو الله وتتضرع إليه أن يحمي هذا الطفل الصغير.

اعترف لها في خجلٍ وبصوت منخفض وهو في التاسعة أو العاشرة بأنه يُصاحب "كمال" بائع الجرائد كبير السن في الحارة المجاورة. فقال لها:

- يا ماما! عم "كمال" أعطاني كتبًا أحضرها معه من مصر.

وعرض لأمه كتابًا صغيرًا ممزقًا به روايات هابطة لا ضرر منها، وقصص قصيرة عاطفية، ومجلدات مصورة عن الحيوانات والمناظر الطبيعية الأجنبية، وكل ذلك كان قد أهداه له صديقه الجديد "كمال". لم يكن والد "طارق" يولي القراءة أي أهمية أو يملك كتابًا، غير قراءة القرآن، وكان يريد أن يرسل ابنه الصغير للجيش، حيث قال:

- هناك سيصبح رجلًا، وسيعود ذلك عليه بالنفع.

كان "طارق" يخبئ مكتبته الصغيرة في كرتونة قديمة تحت السرير لا يعلم أحد عنها شيئًا سوى أمه وأخيه "خالد".

وكان أخوه يحميه في الشارع من الصبيان في مثل سنه الذين يتمتعون ببنيان قوي وقلبٍ قاسٍ، كما يساعده في واجباته حتى أصبح "طارق" نفسه أسرع منه في عملها، حينها قال له أخوه "خالد" إنه يجب عليه مواصلة دراسته وأن ذلك هو الطريق الصحيح له.

أرسل "خالد" شـهادات أخيـه سِرًّا ومرفـق معهـا خطـاب إلى وزارة التعلـيم كخطـوة عـلى طريق الحصول على منحة دراسية بالخارج، يسافر بموجبها من وقع عليهم الاختيار إلى أمريكا أو إنجلترا أو ألمانيا للدراسة. وبذلك ظل الأمر مُتوقفًا على اختيار الوزارة. وكان أكـثر مـن يـتم اختيارهم من الأطباء والمهندسين، والشرط الوحيد هو أن يعود الدارس بعد إتمـام دراسـته إلى بلده ليقدم معرفته في خدمتها.

كان الخطاب الذي أعطته أمه له يتضمن موافقة وزارة التعليم على طلبه، حيث قالت له عندما رأته لا يفهم شيئًا ممَّا حدث:

- أخوك فعل ذلك لك، إنه عفريت، ليس لي في الدنيا سواكما.

وبكت أمه، وفهم "طارق" أنه يجب عليه ترك العائلة قريبًا. ولم يكن أبوه متأكدًا أن البلد الأجنبي سيكون جيدًا بالنسبة لابنـه، لكنـه وافَـقَ عنـد عودتـه إلى المنـزل لأن أصـدقاءه عـلى القهوة وجهوا إليه التهنئة لأن ابنه سيُنادَى فيما بعد بكلمـة "دكتـور"، حيـث قـال أبـوه بعـد عودته:

- ربما تجعل الغربة من "طارق" رجلًا أيضًا.

صنع له أبوه عشر بدل وقمصانًا بيضاء وجواكت ثقيلة. كان قـد رأى أشـكالها في إعلانـات السينما يرتديها "عادل إمام" و"عمر الشريف". كما كان الأب راضيًا كل الرضا، وفـوَّض زوجتـه أن تبحث لابنه الأصغر في أثناء سفره عمن تستحق أن تكون الزوجة المستقبلية للدكتور.

جمَّع الإخوة مالهم، واشتروا لأخـيهم الـصغير شـنطتي سـفر مـصنوعتين مـن الجلـد، كـما طلبت منه أخته "زينب" أن يجلب لها أسطوانات للمغنيين "إلفيس بريسلي" و"بودي هولي".

في يوم السابع من يناير عام ألف وتسعمئة وثمانيـة وسـتين – قبـل أيـام مـن عيـد مـيلاد "طارق" التاسع عشر - أوصـل "خالـد" أخـاه "طـارق" بـشنطتي الـسفر الجلـديتين وتـسريحة الشعر الجديدة إلى المطار الجديد بجدة. وكـان يرتـدي بدلتـه التويـد الجديـدة التـي أغرقهـا بعرقه، كما حاول أن يثبت في ذاكرته صور مدينتـه التـي كـبرت حولـه وبداخلـه في الـسنوات الأخيرة، حيث الحارات الضيقة المتصدعة التي قضى بها طفولته، وبيوتها المائلة المـصنوعة مـن الحجر الرملي والشبابيك ذات المشربيات المتهالكـة، ثـم تغـير ذلـك بـشكل كامـل وسـكنوا في البيـوت العاليـة المبنيـة عـلى الطـراز الأمـريكي الـذي يتميـز بالواجهـات المـصقولة الفاتحـة والشبابيك الحديثة التي ركبهـا أبـوه في بيتـه قبلهـا بـشهور قليلـة. كـما أصـبحت المحـلات في المدينة القديمة تبيع الساعات اليابانية والراديو، وكافيتريات المدارس تبيع في السنوات الأخـيرة الكولا في زجاجات صغيرة منتفخة. كما حلت الأكشاك الصغيرة الخضراء محل أكـواخ الـصفيح التي يستخدمها الباعة الجائلون وفي يوم وليلة، ظهرت فجأة عـشرة صـناديق قمامـة زرقـاء في الشارع الطويل أمام بيته، بمعدل صندوق كل مترين، وزاد ازدحام الـسيارات لأن كـل شـخص أصبح بإمكانه شراء سيارة، وقامت الوزارة بإنشاءات على الطرق جعلت الحـارات المروريـة في الطريق ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا. وللمـرة الأولى، لفـت انتبـاه "طـارق" أنـه لا يعلـم شـيئًا عـن

البلد التـي سـيعيش فيهـا سـوى معلومـة واحـدة وهـي أن المـصانع الألمانيـة كــ"مرسـيدس" و"فولكس فاجن" أشهر من مصنع "تويوتا" الياباني.

قال "خالد" وهو يحتضن أخاه بقوة في المطار:

- الـلـه معك يا أخي.

بقي "طارق" في ألمانيا اثنتي عشرة سنة أصبح خلالها يجيد اللغة الألمانية بطلاقـة، إلا أنـه كان ينطق حرف الـ"R" بشكل مبالغ فيه. كما عاش في الـسكن الجماعـي مـع طـلاب آخـرين وكان يطبخ الأكلات التي تعلمها من أمه، كالأرز مـع الفـراخ والطماطـم والقرفـة، كـما افتقـد البامية والباذنجان اللذين لم يكن يسمع أحد عنهما في ألمانيـا في الـسبعينيات إلا القليـل، كـما افتقد أيضًا الشاي الأسود الثقيل مع النعناع الطازج. كـما تعلـم الـرقص وبـدأ يحـب الـسينما، حيث كان يذهب كل يوم سبت مع زميله السنغالي في السكن إلى سـينما "ليـشتبرج" ليـشاهد الممثلين "مارلون براندو" و"ستيف ماكوين". وكان "طارق" وزميله من عشاق "جيمس بونـد". كما كان يحضر المحاضرات والحلقـات الدراسـية في جامعـة "الـرور" المفتتحـة حـديثًا ويعمـل بجانب ذلك في المستشفى. وكان ضيفًا مفضلًا في الحفلات لأنه يجيد الرقص، ولم يكـن يـشرب البيرة لكنه يجلب معه زجاجة ويسكي ليشارك الآخرين شربها مع الثلج، وهو ما أعجبه بشدة في ألمانيا. كان يعكر مزاجه برودة الجو وأن البدلة الثقيلة التي فصلها أبوه تعـد خفيفـة جـدًّا بالنسبة لأيام الشتاء في ألمانيا.

كان إخوته يزورونه عامًا بعد عام في الصيف، أما هو نفسه، فقد سافر إلى بلده مرة واحدة فقط طوال هذه المدة ليدفن أباه الذي توفي في حادث سيارة. وبعد ذلك، تعرَّف إلى فتاة تختلف عن جميع الفتيات اللاتي عرفهن سواء في ألمانيا أم في بلده، وكان حينها طبيبًا مساعدًا في المستشفى الجامعي بإحدى المدن الصغيرة التي تُجرى بها عمليات التعدين لاستخراج الفحم، كما توجد العديد من إصابات العمل والبيوت الفقيرة. كان "طارق" في الثلاثين من عمره، وكانت الفتاة أصغر منه سنًّا ولديها شعر أشقر مفروق من الجانب، كما تهتز مقدمة شعرها وهي تمشي في ممرات المستشفى وكأنها ترقص. كان اسمها "باربرا" وكانت تضحك أكثر من باقي الفتيات الألمانيات اللاتي يعرفهن، ونظرتها إليه مباشرة ومليئة بالثقة وصوتها له رنين قوي وثابت، كما ترتدي بنطلونات بأرجل واسعة وتستمع إلى أسطوانات "جون بايز" و"بوب ديلان"، وكان قد عرف هو ذلك عنها من زميلتها في التمريض التي ابتسمت وهو يسألها كيف تقضي "باربرا" وقت فراغها. وأُعجب "طارق" بذلك، كما أُعجبت الفتاة بأدب الدكتور الصغير وحزنه الذي يبدو عليه عندما يبتعد عن الناس وأيضًا تكراره لحرف الـ"R" وهو ينطق اسمها. وكان يثير ضحكها في أثناء الورديات المشتركة وهو يحكي لها عن أبناء إخوته، ثم تحكي هي عن الأسطوانات التي اشترتها مؤخرًا وعن أنها تريد الذهاب في رحلة إلى باريس في الصيف مع صديقاتها. وسألته "باربرا" عن أبويه وكيف يبدو بلده، وهو أيضًا استعلم عن أبويها وعن حياتهم، إلا أنها قالت إنها لم تعش حياتها بعد.

دعاها "طارق" إلى السينما، ولكنها رفضت لأنها مخطوبة، ثم كـرر الطلـب مـرات ومـرات حتى وافقت على طلبه في إحدى المرات وهي تبتسم.

وفي أحد الأيام بعد السينما، كتب "طارق" إلى أخيه أنه قد وجد زوجته المستقبلية:

- احضر سريعًا يا أخي، ستحبونها جميعًا كما أُحبُّها.



- لقد كنت أشتاق كثيراً أيضًا يا "ليلى"؟

- ولماذا لم تقل شيئًا؟

وادي الهشام



كنت أجلس وحيدًا في الصالون وتليفوني يرنُّ عدة مرات. ظهرت صورة "يوليا" على الشاشة وهي تبتسم لي، وكنتُ على يقين أنها في الحقيقة لا تبتسم في تلك اللحظة وأن هذه المرة ستكون الأخيرة التي تظهر فيها صورتها على تليفوني. فتحت الإيميلات، ثم أعدتُ ملء الكوب بالشاي. كنتُ ما زلت متأثرًا برحلة مكة، وأشعر بالصداع كأنني كنت أنتحب ورقبتي متيبسة كأنها مصنوعة من الأسمنت. دائمًا ما كنتُ أُفضل النوم طوال النهار والتدخين أيضًا، إلا أن البرنامج الموضوع كان يسير بانتظام كأنه برنامج في معسكر صيفي.

أصدر الأسانسير صوتًا والباب ينفتح ودخل "رامي" الذي ابتسم لي ابتسامة تآمرية وأخبرني أنه قد جهز **خروجة** في المساء إلى الصحراء، فقال:

- رحلة عزاب على الطريقة السعودية، أنت تعرف أن "حفلة توديع العزوبية" على الطريقة الأوروبية لا تصلح هنا، كالتعري وغير ذلك. لا أقصد أن ذلك يثيرني، فأنا أحب أختك ولن أجرحها بفعل ذلك. ولكن على كل حال ستعجبك الطريقة السعودية أيضًا.

فقلت له:

- يبدو ذلك رائعًا.

وأخذت رشفة من الشاي، ثم سكتنا لحظات فساوره القلق أكثر مما ساورني.

ثم قال في آخر الأمر:

- لقد أخبرت "عمر" بذلك. لستما بحاجة إلى تدبير أي شيء، فكل شيء مُجهَّز يا أخي.

وضحك ضحكته الرنانة القوية ومسح بيده على شعره ذي اللون البني الفاتح الغريب، فتحسست شعري أيضًا كرد فعل غير مقصود. أصيب والدي في آخر أيامه بالصلع، وكنت أخشى أن أصاب بذلك أيضًا، ولكن شعري قوي كشعر "باربرا".

قال "رامي":

- خذ معك بلوفر ثقيلًا يا أخي، فالجو بالخارج يكون قارس البرودة ليلًا، سنصطحبكم بعد المغرب، فصديقي الأنتيم "فادي" جهز سيارات جيب وبها مكان للجميع.



طَرَقَ "عمر" باب حجرتي قبل الساعة السابعة بقليل، ونزلنا للآخرين الذين كانوا قد فرشوا سجاجيد الصلاة وبدؤوا في الصلاة، فجلستُ عند إحدى الزوايا وانتظرت حتى يفرغوا من صلاتهم. وفي تلك الأثناء، فكرت أن أبعث رسالة قصيرة إلى "يوليا" أو أن أرسل لها في المساء صورة من الصحراء، لكنني تراجعت عن ذلك لأنه سيكون غير عادل وكأنني أعطي قبلة الحياة لعلاقتنا.

وبعد أن سلم "عمر" والآخرون في آخر الصلاة، سمعت صوت الكلاكس قادمًا من الخارج، فوقف "عمر" وابتسم لي في ابتهاج وقال:

- يالَّا يا حبيبي. فلنذهب!

كانت ثلاث سيارات جيب سوداء منتظرة أمام البيت مكتوب على أبوابها اسم شركة سفريات "الأهلي للحج والعمرة" بالحروف العربية واللاتينية وباللون الأخضر والذهبي وتحتها نخلة مرسومة. فتح لنا "نبيل" - سائق سيارتنا - باب السيارة، وأخذ مني شنطة الظهر على الفور، وكان "رامي" يجلس في

السيارة مع صديقين له ويتحدثون بصوت عالٍ عن كرة القدم وعن عجز "نبيل" عن ركن السيارة بشكل صحيح.

قال "رامي" بصوت مرتفع:

- أهلًا أهلًا، يا جماعة اسمحوا لي أن أقدم لكم أخي "باسل". يا أخي هؤلاء أعز أصدقائي "فادي" و"حسن". "حسن" هو زوج أختي، أي إنه أخوك أيضًا، يا حبايبي شرفتونا، مرحبًا بكم، تشرفت بدعوتكم.

مد "عمر" يده لـ"فادي" و"حسن" وتبادل معهم المجاملات عن الآباء والأبناء.

نظر "حسن" باتجاهي وقال لي بالإنجليزية:

- مرحبًا، مبروك على زفاف أختك.

وأشار لي بإبهاميه، فأومأت برأسي ورفعت إبهامي وشكرته على التهاني.

شغَّل "فادي" الراديو، وشغَّل "حسن" أغنية بوب عربي على التليفون، وكانت تجرى الأحاديث والمناقشات بشكل متدفق، ومعظمها باللغة العربية. اجتهدت في الدقائق الأولى أن أنتبه للأحاديث الجارية عن العائلة والسيارات والعمل. وعلى الرغم من عدم وجود موضوع محدد للحديث، فإن حديثهم كان بصوت مرتفع. نظرت من النافذة الفاميه الذي يُظهر زرقان الأضواء التي تملأ الكورنيش ورأيت الناس يملؤون الشوارع ليستمتعوا ببرودة المساء.

قال "فادي":

- مرحبًا يا أخي العروس، لقد كنت في ألمانيا العام الماضي، أين تقع مدينتك؟ لقد كنا في ميونيخ، كانت زوجتي تريد رؤية القصور هناك، وفي رأيي، إن هذا شيء سخيف ولكن ماذا نفعل أمام طلبات النساء؟ وعلى الرغم من ذلك، فألمانيا رائعة وكرة القدم لديكم مدهشة.

وكانت تلك هي المرة الأولى في هذا اليوم التي أبتسم فيها.

اتجهنا ببطء إلى خارج المدينة، عبر الطريق نفسه المؤدي لمكة في البداية، ثم اتجهنا إلى الشرق حيث "وادي الهشام" الذي تقول اللافتة إنه على بُعد نصف ساعة.

كان "رامي" يتحدث باستياء بلا توقف عن عدم كفاءة موظفيه، في حين يشتكي "فادي" من تبذير زوجته، أما "حسن" فلا يتحدث كثيرًا ولكنه يعلق أحيانًا على المباريات المنقولة عبر الراديو.

لكزني "عمر" لكزةً خفيفة في جانبي، فهو لم يتوقف طوال الرحلة عن التدخين وعن شرب علبة "الريد بول" التي يمسكها.

قال "عمر":

- كله تمام؟ يا باشا! ساكت ليه؟

فقلت بشكل مختصر وأنا ألتقط سيجارة معروضة عليَّ:

- لم أنم جيدًا بالأمس.

عمَّ الظلام الحالك منذ أن تركنا الطريق الأسفلتي. في البداية، كانت هناك مصابيح على مسافات متفرقة، وبعد ذلك، لم يتبقَ سوى كشافات السيارة الجيب، كما بدأت التربة تحت السيارة تتغير وعجلات السيارة تصدر صوتًا وهي تسير فوق الأرض الصخرية. وكان ذلك الصوت هو الوحيد الذي نسمعه في تلك الصحراء.

بين الحين والآخر، يصطدم "نبيل" بمطب فنهتز جميعًا داخل السيارة، فيصرخ "رامي" في وجهه قائلًا:

- ″نبيل″ يا حمار!

لم يكن "نبيل" يرد عليه، وإنما فقط يهزُّ كتفه ويستمر في القيادة في صمت في ذلك الطريق المجهول.

ظللنا على تلك الحال لمدة ساعتين، ثم سمح "نبيل" لإحدى سيارات الجيب التي تسير خلفنا بتجاوزنا. كانت تلك السيارة تسير على الكشافات الأمامية العالية، وكان يبدو على بُعد وجود منحدر وصخرة كبيرة الحجم بين المستوى الأفقي وأعلى الجبل، وتضيء أمامها أضواء خيمة صغيرة، فقال "رامي":

- ها هو المكان، أهلًا في "وادي الهشام"، الآن يمكن للحفلة أن تبدأ.

كانت هناك ثلاث خيام منصوبة بالفعل، كما تقف سيارة "تويوتا بيك أب" على الجانب بجوار الصخرة، وكان بعض الرجال يتنقلون بين السيارات والخيمات ويحملون مخداتٍ وسلالًا.

قال "رامي" بكل حماسةٍ:

- أهلًا أهلًا.

فتنهد "حسن" وقال:

- أخيرًا وصلنا، لقد مر وقت طويل.

وقفت السيارات الجيب بجوار بعضها البعض، ونزل من السيارات الأخرى سبعة رجال جميعهم أصدقاء وأقرباء لـ"رامي" الذي عرَّفني إليهم جميعًا ونسيت أسماءهم في اللحظة نفسها، "علي" و"أحمد" و"فيصل" و...

ذهب "نبيل" والسائقان الآخران إلى السيارة "التويوتا بيك أب" وجلسوا على الأرض واتكؤوا على السيارة وتشاركوا شرب السجائر، ولم يتلفظ واحد منهم بكلمة أو ينظر باتجاهنا.

سرتُ مع الآخرين ببطء، وكانوا يحركون أيديهم بالتليفون في كل اتجاه بحثًا عن شبكة، أما "عمر" فقد سار بجانبي على مهل وهو يدخن سيجارته ويرفع رأسه وظهره مستقيم كأنه باشا. وقال وهو يضحك:

- لن يُعجب عمتك أنها لا تستطيع الاتصال بنا هنا، إنها تقريبًا فعلت كل شيء لكي تعرف أين نحن، كما أرسلت "سليمان" ليبحث عنا.

ثم أغلق تليفونه الـ"آيفون"، وقال بكل رضا:

- لسنا في حاجة إلى هذا الآن.

ثم وضع يده حول كتفي ضاحكًا وقال:

- يلا بينا.

كانت الشعلات موضوعة حول الخيام على شكل نصف دائري وفي منتصفها تشتعل النـار. ويُحرك شاب ذو عمة كاروهات وسكسوكة عصاه داخل اللــهب، ويـضع بـين الحـين والآخـر داخله الـلـهب أشياء تزيده اشـتعالًا. وكـان "رامـي" وأصـدقاؤه قـد اسـتراحوا عـلى المخـدات وجهزوا الشاي والشيشة. ويبدو أن السيارة "البيك أب" كان يركبها أكثر من ستة بـدويين، مـن المحتمل أنهم قد وصلوا قبل الظهر وبدؤوا نَصْبَ الخيام.

استرحت أنا و"عمر" على المخدات بجوار الآخرين، وقـد خلـط أحـدهم أوراق الكوتـشينة ووزعها على ثلاثة آخرين، وهو يضع الشيشة في جانب فمه وينفخ سحابة دخان صـغيرة، كـما أحضروا التمر والتين المجفف والتبغ. لم أشعر بـسكون الـصحراء الـذي حكـت لي "الـيلى" عنـه بحماسة في كروت البريد.

كان البدويون يلفُّون حول الخيام بالأوعية والأطباق والأباريق، كما وصَّل أحـد الحـاضرين التليفون بسماعة كبيرة أطلقت صـوت موسـيقى عربيـة فـضحك الرجـال وتهامـسوا وأكملـوا أحاديثهم التي لا تدور حول موضوع محدد.

جلس "عمر" أمام "فادي" للعب الطاولة، وكان يسبه ضاحكًا بصوت لا يكاد يُسمع.

وقال "رامي":

- "باسل" حبيبي، تعالَ إلى هنا، أتحب لعب الكوتشينة؟

طرق "رامي" على المكان الخالي بجانبه وأشار لي بالجلوس فيه مع أصدقائه، ثم أكمل قائلًا:

- رائع، أليس كذلك؟ بعد قليل سيتم تقديم الخروف، لقد دفنه الرجال في الرمال الحارة في الصباح خلف الخيمة. صدقني، إنك لم تأكل شيئًا كهذا من قبل في حياتك، تريد رؤيته أليس كذلك؟ يا "يحيى"، تعالَ هنا، إنه أخي "باسل"، ضيف خاص من ألمانيا، أتفهم ذلك؟ لقد أتى من مكان بعيد بالطائرة، إنه لم يرَ حتى الآن كيف نعد الخروف، اذهب معه وأرِهِ ذلك.

قام "رامي" من مجلسه على المخدة بصعوبة وعدَّل جلبابه، وسار ناحية باب الخيمة وهو يحك الأرض بشبشب قدمه اليسرى، وتعلق بي فكنت أشم رائحة تبغ الشيشة ورائحة عطر "أولد سبايس".

جاء أحد البدو جريًا وانحنى ثلاث أو أربع مرات أمامنا قائلًا:

- حاضر يا باشا حاضر.

وأشار لي باتباعه، وكان يسير بقامة محنية ويعرج برجله الحافية وقد شمَّر أطراف جلبابه البني الثقيل ووضعها في يده حتى لا تلمس التراب، وتبدو قدمه

وكأنها من الجلد، وسوداء كباقي ثوبه، ويرتدي عمامة رمادية تبدو كأنها كانت بيضاء يومًا ما، كما يرتدي فوق الجلابية جاكيت عليه شعار نادي "شيكاغو بولز".

وكان يلتفت لي كثيرًا ويقول بالإنجليزية:

- جيد جدًّا، ألمانيا، جيد جدًّا.

ثم يشير لي بإبهامه. كما أشار إلى حفرة خلف الخيمة حولها أحجار كبيرة على شكل دائرة تمتلئ بفحم مشتعل وأحجار يخرج منها البخار وقطع الحجارة المكسورة وأفرع محترقة تنبعث منها رائحة التتبيلة.

أشار "يحيى" على الحفرة، وقال:

- هذا **الماااااااء** موجود تحت، يعني جوا، جيد جدًّا، **مااااااء**.

ووضع كلتا يديه على جبهة الخروف المكسورة وأشار إلى القرون، وانحنى ونبش بيده في التربة الصخرية وأصدر صوت الخروف بضع مرات حتى يوضح لي أن تحت الفحم يوجد خروف في الحفرة وسيتم تقديمه إلينا لاحقًا.

فأومأت برأسي ورفعت إبهامي وقلت:

- ممتاز.

فضحك "يحيى" بصوت عالٍ، وضربني على كتفي وقال:

- ممتاز ممتاز أيوة.

وانحنى والتقط فرعًا وبدأ يقلب في الـلـهب، ثم التقط بيده المكشوفة حجرًا من الـلــهب ووضعها جانبًا دون أن تتغير ملامح وجهه.

انبعث دخان كثيف من الفتحة الصغيرة ممزوجًـا برائحـة شـعر محـروق ودهـون وجلـد متفحم، كما انزلقت بعض الحجارة الصغيرة المتوهجة فأحدثت صوتًا. وسّـع "يحيـى" الحفـرة قليلًا وأخذ يهوي على الرائحـة بيـده ثـم رجـع إلى الـوراء، ثـم قـال لي وهـو يـدفعني بـضعة سنتيمترات إلى الأمام:

- انظر، انظر.

فنظرت إلى ما بداخل الحفرة بشكل أوضح.

كانت رائحة الشعر المحروق واللحم الساخن فوَّاحـة، كـما كانـت ملامـح الخـروف يمكـن تبيُّنها، فرأسه داخل الفحم وكأنه يحتضن مخـدة سـاخنة، وفي محجـر عينـه مـا زالـت مقلتـه المتفجرة في مكانها، وفمه مفتوح عن آخره وينظر إلينا من داخل الحفـرة في تـشكك وخبـث، كما تصدر السَّمانة صوتًا مع الفحم الساخن وينبعث منها دخان رمادي. بـدأت عينـي تـدمع فمسحت أنفي بكمي وكتمت رغبتـي في التقيـؤ وكححـتُ. والتفـت بـوجهي بـشكل لا إرادي بعيدًا عن الحفرة لأبتعد عن رائحة اللحم.

فرجع "يحيى" إلى مكان النار وغطى الخروف مجددًا بالفحم والأفرع وقال:

- جيد جدًّا، أليس كذلك؟

فأومأت برأسي ورفعت إبهامي، فقال "يحيى" ضاحكًا:

- ممتاز، أليس كذلك؟

في تلك الأثناء، كان الشباب قد شغلوا الموسيقى بصوت عالٍ على أغنية "الدنيا حلوة وأحلى سنين..." فبدت وكأنها "بريتني سبيرز" باللغة العربية، وتعالت الضحكات والمعارك الكلامية داخل الخيمة، وربما قد سبَّ بعضُهم بعضًا أيضًا. شعرت بتشويش في رأسي، وما زال الخروف في النار من خلفي، فسرت بضع خطوات بعيدًا عن "يحيى" في اتجاه الصخرة وقلَّت الرغبة في التقيؤ وتمكنت من التنفس بشكل مريح ولم تعد عيناي تحرقانني، ومسحت وجهي بطرف التي شيرت، وقد امتلأت بالعرق والدموع والرغبة في الاتصال بـ"ليلى" لأصرخ لها وأقول:

- ما هذه السخافة التي تحدث هنا!

قابلني "فادي" وأنا في طريقي إلى الخيمة وهو يسب:

- ما هذه السخافة! لا يوجد مكتب استعلامات وسط الصحراء!

وأخذ يحرك يده بـ"البلاك بيري" ويشير باتجاه الصخرة من خلفنا وأكمل:

- "عمر" يقول إنني يجب أن أصعد فوق الصخرة، ربما توجد شبكة بالأعلى، هل أنت بخير؟ اذهب واشرب شيئًا، أراك لاحقًا.

كان بعض الشباب ما زالوا منهمكين في لعب الكوتشينة، وجهز "رامي" الشيشة، ووضع الجزء المعدني في أعلى الشيشة جانبًا وأخرج شيئًا آخر من جيب الجلابية، وقال:

- آه يا أخي لقد جئت في الوقت الصحيح، هل رأيت الخروف؟ رائع ما شاء الله أليس كذلك؟ هيا لنشرب مشروبًا فاتحًا للشهية.

وأظهر لي الزجاجة الصغيرة، وقال:

- من الفندق في دبي الأسبوع الماضي.

وأخرج زجاجة "الجوني ووكر" من الثلاجة الصغيرة وأفرغها في مياه الشيشة، وسقط الويسكي في قاع الجسم الزجاجي ليرسم قاعدة بنية ذهبية في القاع، ثم ركب "رامي" الجزء المعدني مرة أخرى ببراعة، ووضع خرطومًا أزرق طويلًا في المقدمة، ونظر لي كالطفل الذي أنهى واجباته بسرعة على غير المتوقع.

قال "رامي" وهو يعطيني الخرطوم:

- يالَّا اتفضل، خذ راحتك، ولكن لا تفشِ السر لأختك، أحضر فحمًا للشيشة، يالَّا.

كان "رامي" يحمل **الجوزة** الصغيرة ويمر على الشباب، وكنت أنا ما أزال محتفظًا بطرف خرطوم الشيشة، ومر "رامي" من أمامي فأخذت نفسًا.

وجاء "يحيى" بسلة بها فحم مشتعل ورصَّه على الشيشة.

جلسنا نحن الأربعة حول الشيشة بحيث نكون جميعًا على مقربـة مـن الخرطـوم، وكـان الماء داخل الشيشة يصنع فقاعات والرائحة تميل إلى رائحة الويسكي، وطعمـه كأننـا نستنـشق الكحول فيُشعرنا بالدوار وثقل الرأس. كانت الأصوات تتعالى من حولي، كما رجع "فادي" دون أن يجد شبكة لتليفونه "البلاك بيري"، وهو يقول:

- صحراء لعينة!

ترنَّح أحد أصدقاء "رامي" باتجاه السيارات الجيب، ثم عاد ومعـه شـنطة جولـف سـوداء ثقيلة، فصفق الرجال بصوت مرتفع وتحدثوا بكلام غـير مفهـوم بالنـسبة لي، فـسألني "عمـر" الجالس بجانبي وهو يطرق على كتفي:

- حبيبي، هل أنت بخير؟ أنت تبدو شاحبًا.

فأجبته بلغة عربية مكسرة:

- نعم بخير، ما في مشكلة.

فضحك الرجال وكرروا كلامي بالطريقة نفسها، وكأنهم لم يروا أحدًا هكذا من قبل.

رمى "عادل" شنطة الجولف على الأرض، وقال:

- يا "يحيى" رتب العلب هنا في صفٍّ واحد، هيا ابدأ.

ثم رمى لـ"يحيـى" شـنطة بلاسـتيك بهـا علـب مـشروبات فارغـة، فلـم يتلقفهـا بالـسرعة الكافية، فوقعت الشنطة البلاستيك على الأرض وتقطعـت. شـعرتُ بالـدوار وعـاودني الـشعور بالغثيان.

وزع "عادل" ثلاث بندقيات صغيرة كانت في أغطية حمراء في شنطة الجولف، وقال:

- كونوا حذرين يا شباب، هذه كانت هدية من الملك "فيـصل" لأبي عنـدما استأصـل مـن ابنه الزائدة الدودية، أنتم الآن تمسكون سلاحًا ملكيًّا.

كان أحدهم يدخن "جوانًا" من الحشيش، ربما يكون "يحيى" أو أحـد البـدويين الآخـرين، فاختلطت رائحة الويسكي بعفن الخروف ورائحة الحشيش. كانت البنـدقيات الـثلاث قـد تـم توزيعها بسرعة، حيث اصطف "رامـي" و"فـادي" و"حـسن" بجـوار بعـضهم الـبعض، وأخـذوا يصححون وقفتهم. وضع "فادي" البندقية جانبًا ولحق بـ"يحيى" الذي كان يرتب علب الكـولا في صفٍّ واحد، وقال "فادي":

- ستكون زوجته شاكرةً لي، عندما أقتله لا تفشوا السِّرَّ، اتفقنا؟

فضحك الرجال، في حين نظرت أنا إليه كالمصعوق، فقال:

- لا تقلق يا أخي، ما زال السلاح غير معمر.

لم يفقد "يحيى" هدوءه، وظل يرصُّ العلبة تلو الأخرى حتى أشار بإبهامه عاليًا واتجه ببطء ناحية حفرة الخروف.

وُضعت الخراطيش وبدأ إطلاق النار، فتعالى صدى صوت الخراطيش بين الصخور، كما كانت تصدر العلب المصابة صوتًا عاليًا وترتفع في الهواء ثم تسقط على الأحجار. وقفنا في نصف دائرة حول القناصين الثلاثة، حيث يتم التصفيق لمن يصيب الهدف، ويُواجَه صاحب الطلقة التي تخطئ طريقها بالسخرية. أصاب "فادي" ثلاثة و"رامي" أربعة ولم يُصِب "حسن" شيئًا سوى أنه أفزع عصفورين كانا نائمين خلف العلب. وتعالى صوت موسيقى البوب القادم من الخيمة الخالية.



فكرت في "ليلى" وفي "أليكس" وفي جلوسنا فوق سطح مبنى "سيمانس مسيون"، حيث كنا نستمع إلى صوت الميناء ونتشارك السجائر، فكرت في أننا كنا وقتها نجلس لإمتاع بعضنا البعض وليس لأكل الخروف واللعب بالأسلحة وشرب الويسكي والشيشة، وكان ذلك أمرًا رائعًا. كنت أريد أن أسأل "ليلى" في أسرع وقت عن هذه السخافة التي سببتها لنا، إلا أنه لا توجد شبكة في تليفوني.



أعطاني "رامي" البندقية وقال لي:

- يالَّا يا أخي، يا "باسل"! دورك، اثبت لنا أنك بدوي حقيقي.

أعطاني "رامي" البندقية في يدي وبدأ يعلمني، اليد مرتفعة والكتف للخلف والساق للأمام والوقفة ثابتة والأصابع على الزناد.

قال "فادي":

- أرِنا ما تعلمته.

رجع "رامي" بضع خطوات إلى الخلف وقال:

- اضرب.

ضغطت على الزناد فارتد السلاح في كتفي في خفة، فترنحتُ بضع خطوات إلى الخلف واستعدت توازني، وكانت الطلقة قد أصابت الربوة المرتفعة والعلبة ثابتة في مكانها والجميع يضحكون من حولي.



انخفضت يدي ببطء وهي ترتعش، وفكرت في "ليلى" التي كنت أنا و"أليكس" قد أصبنا أهدافنا من الورود - في أحد الملاهي ببنادقنا الهوائية - من أجلها، وكان "أليكس" يتباهى أنه ضرب صفًّا من الورود كاملًا، أما أنا فقد أصبتُ وردتين. واحدة صفراء والأخرى بنفسجية وعليهما الكثير من الترتر، وظلت باقة الورود الحريرية هذه – المكونة من ست وردات - موضوعة لوقت طويل في فازة على نافذة المطبخ.



قال "رامي" وهو يطرق على كتفي ويضحك:

- إذًا علينا أن ندربك كثيرًا قبل أن نعتبرك عضوًا كامل العضوية في عائلتنا.

قال "فادي":

- يالَّا، تعال، جرب سلاحًا آخر...

وأمسكني من خصري وأراد أن يوجهني ناحية الزاوية الصحيحة.

وعندما ضغط على زناد البندقية لم أستطع السيطرة على يدي نتيجة قوة الارتداد، فارتدت يدي اليسرى بقوة واصطدم كعب البندقية بصدغ "فادي". وقع السلاح على الأرض وانكسر شيء ما. فوقف "فادي" مكانه يمسح صدغه بيده اليمنى ويحملق. تنهدت بقوة ووجهت قبضة يدي اليمنى تجاه "فادي"، وكأنني معتاد أن أضرب الآخرين باللكمة.

وقع "فادي" على الأرض بجوار البندقية التي انفصلت عنها عدستها، وألقيت نفسي فوقه لأستمر في ضربه، وبعد ذلك بدقائق، ربما تكون عشرًا أو خمس عشرة أو عشرين وربما تكون ثوانٍ فقط، أبعدني أحدهم وهو يتمسك بيدي التي لا تزال تريد أن تضرب مجددًا.

فهمس "عمر" في أذني:

- حبيبي، بس خلاص!

تحدث "رامي" مع "عمر" وأعطاه ميدالية مفاتيح، وكان باقي الرجال يقفون تحت الظلة بجوار "فادي" الذي اصطدم جانب جبينه في أثناء وقوعه بعلبة كولا فتورم، ألبسني "عمر" الجاكيت الخاص به حول كتفي كما أعطاني سيجارة مشتعلة في يدي، وقال:

- انتظر هنا قليلًا.

ووضعني في إحدى سيارات الجيب، ثم عاد إليَّ مجددًا والآخرون ينظرون إليه في صمت، وقال:

- يالَّا يا باشا، أخذت مفاتيح السيارة، دعنا ننصرف من هنا.



جلستُ أنا و"عمر" في أحد مطاعم كنتاكي في طريق العودة إلى جدة، وكان أمامي كوب قهوة بارد تم إعداده بواسطة ماكينة القهوة ولم أقترب منه. فلم أكن قد أصبحت بأفضل حال، كما أن رأسي بدأ يتوقَّف تدريجيًّا عن الشعور بالدوار وأصبحت أفكاري واضحة.

قال "عمر":

- "فادي" ليس رجلًا، إنه لم يفز بشيء، كما أن هذا النوع الحقير ثقيل على قلبي، كل ما يحزنني هو أنني لم آكل الخروف.

والتقط بضع شرائح بطاطس ووضعها في فمه ومضغها صامتًا.

وبعد أن ركبنا السيارة ظللنا معظم الوقت صامتين، فقال "عمر":

- لا تقلق يا حبيبي، لن تعلم أختك شيئًا.

قدمت لنا عاملة المطعم دجاجًا مقليًّا جامبو، وقالت:

- تفضلا.

عاودتني الرغبة في التقيؤ من جديد.

قال "عمر" وهو ينظر من نافذة السيارة التي تقف وحدها ليلًا في الطريق السريع الخالي من السيارات:

- أتعلم أن لديَّ ابنًا؟ ابنًا آخر غير شرعي، أمه أمريكية.

فانطلق اللفظ العربي من فمي عن غير قصد وقلت:

- عن جد؟ أتمزح؟

فقال "عمر":

- لا، اسمه "دافيد". تعرفت إلى أمه في "أوريجون" عندما كنت أدرس هناك. إنها سيدة رائعة، ولكن لم يكن ينبغي أن أفعل ذلك، أتتخيل ما قالته العائلة؟ لم أرَ "دافيد" منذ خمس عشرة سنة ولم أتواصل مع أمه منذ فترة طويلة.

ثم تناول جناح دجاجة ولم يضعه في فمه، وأكمل قائلًا:

- أردت أن أبقى هناك يا "باسل" وأن أتزوجها. أردت أن أبقى في الولايات المتحدة، ولكن أحيانًا تكون العائلة أقوى من أحلامك.

لم أتفهم ذلك من "عمر". توجد صور لي وله معًا في صغرنا، وكنت أنا في الخامسة تقريبًا وهو في الخامسة عشر أو السادسة عشر من عمره، وكانت لحيته ما زالت في مرحلة النمو، وكان يشبه بطل مسلسل "ماجنم"، "قُصَّة" مرتفعة وشعره طويل جدًّا من الخلف. كان وقتها يحب كل ما هو أمريكي؛ كرة القدم، ألعاب الفيديو، ديزني لاند، أفلام "روكي".

انتقلنا إلى ألمانيا قبل أن يأمر عمي "خالد" فجأة بعودة "عمر" إلى جدة من أمريكا، ولكنني فكرت بعدها كثيرًا عما إن كان ذلك له علاقة بالخمر والحفلات.

قال "عمر" في آخر الأمر:

- أريد التمتع بالهدوء يا "باسل"، فالأطفال قد كبروا ولم يعودوا في حاجة إلى أمٍّ، ولكن عمتك لا تعطيني الفرصة، لذلك فعليَّ أن أجد من أتزوجها للمرة الثالثة، أنت محظوظ يا باشا، في ألمانيا كل شيء سهل. دعني أنصحك نصيحة: لا تفكر مطلقًا في الزواج.



الشظايا



بدأت الأشياء تتلف بشكل متكرر، ففي أحد أيام الثلاثاء بعد الظهر، أطلق "اللاب توب" الخاص بـ"أليكس" صوتًا ثم أصدر رائحة احتراق، ثم أظلمت الشاشة تمامًا.

كان "أليكس" في تلك الأثناء منشغلًا بتنظيم ندوة، ولم تكن لديه نسخ احتياطية من ملفاته، فأطلق السباب وهاج في الحجرة قائلًا:

- إن هذا الجهاز الملعون قد قرر الآن أن يتوقف عن العمل، يا لها من أجهزة تقنية ملعونة! لقد ضاع كل عملي عليه.

فهزت "ليلى" كتفها وقالت:

- هذا خطؤك لأنك لم تحتفظ بنسخ منها.

ثم ذهبت إلى المطبخ ووضعت ماء الشاي على النار، وكانت مـشمرة رجلها اليمنى من البنطلون حتى ركبتها وتظهر خربشتين في سمانتها، وتضع قلمًا أحمر في ضفيرتها المستديرة.

رد عليها "أليكس":

- ليتكِ كنتِ تحتفظين بنسخ احتياطية، أعدي قهوة بدلًا من هذا الشيء المقرف، إننا لسنا في حديقة حيوانات هنا.

أدرتُ وجهي ناحية المطبخ وأنا أقف تحت إطار الباب ورأيت "ليلى" وهي تقف وتعطينا ظهرها وترفع يدها اليسرى بإصبع الوسطى. لم تكن تطيق "أليكس" في ذلك الوقت.

استمر الوضع في الأسبوع التالي. وفي الليلة السابقة لذلك، كان عندنا صديقات "ليلى" من مدرسة "دويتشه بوخ شليندر" سابقًا، وكن يجلسن في المطبخ للتجهيز للامتحان، و"أليكس" يطبخ أكلة "تشيلي" الحارة ويداعب "سارة".

أخرجت "ليلى" الأطباق والسلطانيات من غسالة الأطباق، وكنتُ أنا جالسًا على مائدة المطبخ أحل الكلمات المتقاطعة في "مجلة التليفزيون".

قلت لها:

- أخبريني بآلة زراعية تبدأ بحرف "ج".

فقالت:

- جرار.

ورصت الأطباق فوق بعضها البعض، واعتدلت وأغلقت باب غسالة الأطباق برجلها، سلطانية ثم الأخرى ثم باقي الأطباق، فانزلق كل شيء من بين أصابعها ووقع على الأرض، ولم يبقَ في يدها سوى وعاء صغير أصفر وظلت تحملق في الحُطام المتفرق على الأرض.

قالت "ليلى":

- سيقتلني "أليكس"، لقد كانت تلك أطباق والده.

وقفتُ من مجلسي وبدأت أجمع القطع من الأرض، وأخذت الوعاء الأصفر من يد "ليلى".

قلت لها:

- إنها مجرد أطباق.

ولم أكن أعرف أن "ليلى" محقة، فتلك الأطباق كانت منذ أن كان والد "أليكس" طالبًا في المدرسة، وقد مات والده منذ سنتين في حادثة.

جمعنا القطع المكسرة ووضعناها في كيس القمامة وكنسنا الأرض، فاختلط الشعر الطويل الأسود بالفتات والتراب وقطع الخزف المكسورة. التقطت "ليلى"

قطعة من السلطانية الزرقاء من تحت الغسالة ثم جلست على مائدة المطبخ، ووضعت القطعة أمامها وجعلتها تدور حول نفسها في دوائر كبيرة وصغيرة وكأن القطعة ترقص على مائدة المطبخ.

سألتني "ليلى" قائلة:

- يجب عليَّ أن أذاكر كثيرًا لامتحان الغد، أيمكنك أن تقوم بهذا العمل؟

لم تنتظر إجابتي فذهبت إلى غرفتها وأغلقت الباب.

في الأسابيع التالية، أصبحنا فقط نصطدم ببعضنا البعض في المطبخ وكأننا نسير ونحن نائمون. كنا نسمع أحدنا يعد القهوة وأبواب غرفنا مغلقة، أحيانًا تقف فتاة غريبة في الحمام في الصباح، ترتدي زي كرة السلة الخاص بـ"أليكس" وتغسل أسنانها بفرشته. كانت "ليلى" تغادر البيت مبكرًا وتذهب للسباحة وبعدها إلى العمل.

بدأ الخريف في "هامبورج" ولم يعد الضوء الدافئ يدخل المطبخ حتى ساعات متأخرة من النهار كما هو معتاد. كما سكنت حركة طيور النورس، وسكن صوت الشارع أيضًا، وأحيانًا تمطر طوال اليوم.

وبعد ذلك، تركت "ليلى" البيت. كنت أعود من لعب كرة القدم مبللًا بالكامل، فأترك شنطتي الرياضية تسقط على الأرض وأدخل الحمام، وكنت أقف أمام باب

حجرة "ليلى" على الرغم من أنها لم تعد في البيت. وكان الأمر مضحكًا بالنسبة لي عندما أتذكر أن "ليلى" في مثل هذا الوقت تعود من عملها، وفي أثناء وجودها خارج البيت تُحكم إغلاق حجرتها حتى لا يدخلها "أليكس" وفتياته.

كانت غرفتها مرتبة، فحتى السرير قد رتبته قبل رحيلها على الرغم من أنها لم تتعود فعل ذلك. وأوراق امتحاناتها مرتبة في كومتين على مكتبها. كنت أعرف أن هناك شيئًا ما سيئًا ولكنني لا أفهمه. حاولت أن أتصل بـ"ليلى"، ولكنني ذهبت لأنظر في صندوق البريد.

في غرفتي، يوجد على المخدة جواب ذو ورقة مربعات بالية، ملأت "ليلى" الورقة بقلم أسود بخط يشبه خط يدها في صباها.

"عزيزي باسل،

لقد أخبروني اليوم أنهم لن يحتاجوا إليّ في مكتبة الكتب بعد الامتحان، لقد ضغطت على الزبون كثيراً كي يشتري، كما أنني لم أتمتع بروح الفريق. يجب أن أتعلم أن من يعمل بتجارة التجزئة عليه أن يسيطر على نفسه بشكل كبير.

كما أنني أخبرت "أليكس" أنني أحبه أكثر من أي شيء آخر، لكنه قال فقط: "أنا لا أحب شيئًا يا ليلى".

لماذا يجب أن أبقى هنا يا "باسل"؟ أخبرني، لماذا؟

لقد تحدثت مع "باربرا" الأسبوع الماضي وكالعادة كان كل شيء سواء بالنسبة لها، لقد قالت إنني يمكنني أن أحصل على المال من التأمين على الحياة الخاص بأبي، كما يمكنني أن أفعل به ما أشاء.

وهذا ما أفعله الآن يا "باسل". لا أريد البقاء هنا حيث لا يجدُّ جديد ولا يناسبني شيء. كل شيء هنا صعب وثقيل القلب، وعلينا أن نتحمل دائمًا وأن نظل صامتين ومسيطرين على أنفسنا وألا نظهر حبنا. كذلك كان الأمر مع "أليكس" ومع الجميع أيضًا، ولم نجد التوافق مطلقًا.

لقد حجزت بالأمس تذكرة سفر إلى القاهرة؛ لأنني أريد دائمًا أن أرى شكل الحياة هناك، سأذهب لأشاهد العالم الذي ننتمي إليه بشكل يفوق تصوراتنا، وحتمًا سأجد مكانًا يناسبني دون أن يواجهني فيه تعب.

لا تغضب لأنني لم أودعك، ولكنني اعتقدت أن هذا أفضل لنا جميعًا. اعتنِ بنفسك وبـ"باربرا"، واعتنِ قليلًا بـ"أليكس". سأكتب لك قريبًا.

أختك،

"ليلى"



وقفت على السرير ونظرت إلى الدولاب المعلقة عليه ملابس العيد المكوية. رائحة التي شيرت الذي أرتديه تشبه رائحة الدهن المقلية ورائحة النار. التقطت تليفوني الموضوع على الكومدينو ونظرت إليه، ولم أجد رسائل من "باربرا" أو من "يوليا"، فهدَّأني ذلك أكثر مما أغضبني. ضبطت المنبه على الثامنة، مما يعني أنه بعد نحو خمس ساعات سيرنُّ وسأقوم وسأستحم وأحلق وأرتدي الثوب السعودي، وكأن ذلك شيئًا عاديًا. ثم أذهب إلى الأسفل حيث يوجد الآخرون ومعهم أختي التي ستكون على حالتها المعتادة "ضائعة إلى الأبد".



العُرس



كانت الغرفة حالكة الظلام عندما استيقظت، حيث تحجز الستائر أشعة الشمس. جلست مرتبكًا، ألم أسمع المنبه؟ كانت الساعة في تليفوني 10:45، ومن الدور الأسـفل، تَـصدُر أصـواتٌ صاخبة، ففتحت نور الأباجورة ودعكت عيني.

كانت "ماري" تدقُّ الباب بهدوء وحرص، وأدخلت رأسها من الباب، وقالت:

- الإفطار جاهز والآخرون ينتظرون، مبروك يا أخ العروسة.

كان لقب أخ العروسة هو اسم شهرتي في ذلك اليوم، فقلت لها:

- شكرًا يا "ماري"، أعطيني عشر دقائق.

كانت الساعة قد أشرفت على الحادية عشرة، عندما دخلت الصالون، وعمتي و"ليلى" واثنتان من بنات عمي وعمي نفسه يتناولون الإفطار. تم تغيير خطط اليوم، ولم أفهم كثيرًا ما يدور في الحديث، فقد كانوا يتحدثون بسرعة وفي صخب.

كان عمي "خالد" يقرأ الجريدة ويكتب ملاحظات ويعيد شرب كوب الشاي بعد امتلائه مجددًا، قال لي عمي عندما لاحظ جلوسي مرتبكًا في الحجرة:

- لا تقلق يا ولد، اترك للنساء فعل كل شيء، لا تفعل شيئًا اليوم.

وظلت "ليلى" بعد الإفطار جالسة تنظر إليّ وقالت:

- كيف كان الحال بالأمس؟ لقد أرسلت لـ"رامي" بعض الرسائل ولكنه لم يرد.

فقلت لها:

- لم تكن هناك شبكة في الصحراء. لقد عدت أنا و"عمر" ليلًا، فلم أكن بخير، يبدو أنه بسبب القلب.

قالت:

- للأسف، ألم تأكل الخروف؟

فقلت:

- لا لقد افتقدته للأسف، لكنه كان لطيفًا، إن "رامي"...

فقاطعتني قائلة:

- أعرف أن صوته عاليًا وأنه يظهر دائمًا ما بداخله، ولكن صدقني إنه طيب.

قلت:

- لا عليكِ ما دام هو طيبًا معكِ.

فضحكت "ليلى" في ارتباك ونظرت إلى المائدة وخفضت بصرها تمامًا كما نتخيل أي عروس عربية، وكان إصبعها السبابة يسير بمحاذاة حافة كوب الشاي الفارغ. التليفزيون في الخلفية يذيع مسرحية مصرية قديمة بالأبيض والأسود تشبه تلك الأفلام التي تعلمت "باربرا" من خلالها اللغة العربية.



نظرت إلى "ليلى" وتذكرت الليلة السابقة، تذكرت "فادي" والخروف و"رامي" والويسكي والشيشة. بحثت عن أختي الصغيرة، تلك الفتاة التي عهدتُها دائمًا تريد كل شيء في الدنيا، ولم تبتعد عني مطلقًا، تلك الفتاة ذات الضفائر السوداء التي تمسك أرنبها الدُّمية في يدها، تلك الفتاة ذات الفستان الصيفي الأحمر التي سافرت معها أنا و"أليكس" بالسيارة إلى إسبانيا وفرنسا والبرتغال للهروب من شتاء "هامبورج". فكرت في "أليكس" وتساءلت أين يمكن أن يكون، وهل يفكر في "ليلى" بين الحين والآخر أم لا، وهل يفكر فيَّ؟



مددتُ يدي اليمنى عبر المائدة وأمسكتُ بيد "ليلى" اليسرى، كانت أصابعها دافئة وطرية، وكانت دبلة الخطوبة كالغريب الذي يقف بيننا.

مر اليوم بالنسبة لي ولـ"عمر" بشكل هادئ تمامًا. حيث ذهبت "ليلى" ومعها النساء إلى مركز التجميل، وأوضح لي "عمر" أن مهمتي الوحيدة في ذلك اليوم هي أن أستعدَّ للتصوير وأن أصطحب "ليلى" لعريسها، وسيكون الاحتفال غير مختلط كما هو معتاد في ذلك البلد، فالنساء في مكان والرجال في مكان. قال "عمر":

- أربعمئة سيدة، الأمهات والحموات وبنات العم والعمة والمصاهرون والصديقات. حافظ على هدوئك.

فقلت له مندهشًا:

- وكم نحن؟

فقال "عمر":

- لا تقلق يا حبيبي، حفلتنا أصغر، نحن لا نتعدى الخمسين، فالرجال يحضرون بشكل أكبر في الخطوبة، وكان ذلك منذ ثلاثة أشهر، أنت لم يفُتك شيء، فالعُرس أيضًا به خروف.

وضحك "عمر" وطرق على كتفي، ثم أكمل:

- سنطلب أكلًا من مطعم ″البيك″ للفراخ، ونلعب الكوتشينة وندخن الشيـشة، وسـيكون المجلس جيدًا.

أرسلت لي "ليلى" صورًا من مركز التجميل تبين كيف يتم تزيين النساء، حتـى هـي نفـسها اختفى منها جزء كبير من ملامحها وأصبحت تـشبه دميـة عربيـة مزينـة. فخـصلاتها الـسوداء أصبحت أطول وأكمل وجُمعت كلها في توكة لامعة صـغيرة، وفمهـا يبـدو أكـبر بفـضل أحمـر الشفاه اللامع.

بدت قاعة الفرح في الفندق الفخم وكأنها مصنوعة من الجلاتين، فالأرض الملـساء تعكـس أنوار ثلاثين نجفة معلقة، وهناك ستون أو سبعون مائدة على كل منها غطـاء أبـيض، وكـراسي ثقيلة لونها أحمر غامق، والقاعـة بأكملهـا ممتلئـة بـالورود الحمـراء. تحـيط الترابيـزات كلهـا مسرح كبير مزين بالأنوار والورد. وذكرني ذلك كله بشكل الاسـتقبالات والحفـلات الراقـصة في القرن التاسع عشر.

كانت القاعة مُجهَّزة بميكرفونات وتليفونات، والخادمات الفلبينيات بيض الوجوه يتحركن حولنا ويعدلن الكراسي ويضعن الأكواب على الترابيزات ويضعن المفارش.

قال "عمر" ضاحكًا عندما رأى تعبير وجهي:

- مالك يا باشا! أغلق فمك.

كنا نسير داخل القاعـة و"عمـر" يـشرح لي برنـامج الحفـل. النـساء يحـتفلن منعزلات، حيـث توجـد فرقـة موسـيقية ومـصورون سـيجهزون فيـديو الحفـل،

وعندما يكتمل حضور المدعوين، سيدخل العروسان إلى القاعة وحينها ستبدأ بعض المراسم مثل تبديل الدبل.

قال "عمر":

- ولكن علينا نحن الرجال أن ننصرف سريعًا وإلا ستحدث مصيبة.

سمعنا صوت عمتي تقول:

- يالَّا يا أولاد.

وقدمت عمتي من إحدى حجرات القاعة إلى المسرح ولوَّحت لنا، ولم أستطع التعرف إلى عمتي وهي ترتدي فستان سهرة أسود يُجرُّ وراءها على الأرض وشعرها متجمع في ضفيرة تعلو رأسها تشبه فيها "أم كلثوم"، وحركتها أسرع ووجهها مضيء، وكأن السيدة العرجاء العجوز التي كانت معنا في الأيام الماضية قد تبدلت.

قالت عمتي:

- يالَّا، المصور ينتظر.

سرنا وراءها إلى الحجرة الجانبية، وكان المصور يتحرك بخفة بين كاميرتين موضوعتين على حامل وبهما أنوار وعاكس. تم وضع شاشة عرض رمادية كخلفية لنا وبحث المصور عن أفضل زاوية للضوء.

كان عمي "خالد" و"رامي" يقفان على الجانب مع رجال آخرين بعيدًا عن الكاميرا ويناديان على المصور، وكلاهما يرتدي جلابية بيضاء والمشلاح وهو العباءة السوداء الثقيلة ذهبية الحواف كالتي يرتديها الشيخ، وكان "رامي" يرتدي عمامة ذهبية. وفكرتُ في أن العمامة فكرة جيدة بالنسبة لصلع "رامي" وضحكت على هذا التفكير. ثم جاء "رامي" إليَّ واحتضنني.

وقال لي وهو يلعب بياقة ثوبي:

- يا أخي، اللـه يخليك، مبروك وأهلًا، هيئتك رائعة وكأنك واحد منا.

فطرقت على كتفه وقلت له مخالفًا قلبي:

- مبروك يا "رامي".

بدأت الموسيقى تعلو من القاعة المجاورة، وغنّت إحدى السيدات بصوتها النشاز أغانٍ عربية تقليدية، وعلا صوت دقِّ الطبلة.

قالت عمتي:

- ها قد جاء أول الضيوف، يجب أن نسرع ليكون أحد أفراد العائلة هناك في استقبالهم.

أوقفنا المصور بعضنا بجوار بعضٍ، "رامي" وأبوه وأخوته وعمي "خالد" و"عمر" وأنا، والتقط لنا صورًا بأوضاع مختلفة، وراء بعضنا البعض وبجوار بعضنا البعض وجالسين وواقفين.

جاءت "أميرة" بنت عمي من إحدى الغرف ومعها فتيات أخريات ترتدين أيضًا فساتين سهرة حمراء وزرقاء وخضراء ووردية تلمع وتصدر صوتًا وهي تُجرُّ على السجاد الأحمر الغامق. اصطفت الفتيات بجوار بعضهن البعض، وكأنهن نجمات أفلام تتسلمن جوائز أوسكار، وكنّ كلهن ترتدين جواهر كثيرة من الذهب والأحجار الكريمة، وإحداهن تضع ثلاث وردات برتقالية اللون في شعرها.

قالت لي "أميرة" وهي تدفعني تجاه الباب الذي قدمت منه وتغلقه وراءنا:

- "باسل" حبيبي أحضر أختك، إنها تشعر بالقلق عند الكوافير.

كان الأمر يبدو في الجناح الخاص بـ"ليلى" في الفندق وكأننا في إعصار، فالأحذية والفساتين مبعثرة على الكراسي والسرير الكبير، وعلى ترابيزتين كبيرتين، يوجد العديد من أدوات الزينة، وفي الهواء، توجد سحابة من رائحة البرفان، ولم أكن أستطع سماع أي شيء آخر سوى الصوت القادم من القاعة والضجيج حول المصورين وبعض أصوات كلاكسات السيارات القادمة عبر الستائر القطيفة. قلت لنفسي إنها أول لحظة هدوء اليوم دون تليفون أو تليفزيون أو موسيقى أو أشخاص. نظرت ناحية "ليلى"، وكان باب الحمام الكبير نصف مغلق، فنظرت منه.

قالت "ليلى":

- ادخل.

كانت أختي تقف أمام المرآة وهي متكئة على الحوض الوردي وترتدي فستان العُرس وتضع يدها بحرص على شعرها. فخطوتُ خطوة داخل الحمام ووقفت خلفها أنظر إليها في المرآة. كانت تبدو شديدة الجمال في فستانها وعينيها الواسعتين المكحلتين. رأيت أمامي صورة البنت الصغيرة التي كنتُ أصطحبها إلى المدرسة وكانت تتبعني أينما أذهب وأشاركها كل شيء في حياتها. كانت ترتدي حلقًا من الألماس في أذنها وتضع أحمر الشفاه وعيناها تلمعان. التقت نظراتنا عبر المرآة فابتسمت لي وشعرت بتأثري. والتفتت إليّ ببطء حتى لا تُعطل الكوافير وقالت:

- قل لي، كيف أبدو؟

فقلت لها:

- ملكة.

ومددت يدي ومسحت بحرص على شعرها المزين الذي وضع عليه الكوافير بنسة شعر لامعة على شكل نجمة.

فقلت لها وأنا أمسك البِنسة بحرص:

- اثبتي قليلًا.

لاحظت أن يدي ترتعش قليلًا، فسحبت النجمة وضغطتها مجددًا داخل الشعر الممتلئ برائحة البرفان، مما أصابني بالدوار.

قلت لها وأنا أشعر بمرارة:

- الآن تبدين كما يجب أن تكوني.

ونظرنا إلى بعضنا البعض مباشرة للمرة الأولى خلال هذا الأسبوع وامتلأت أعيننا بالدموع.

فمسحت "ليلى" بيدها على خدي وقالت:

- شكرًا لأنك بجانبي اليوم.

فقلت لها:

- وأين يجب أن أكون؟

فاحتضننا بعضنا البعض وقتًا قصيرًا، وقالت ضاحكة:

- مكياجي وجلابيتك، إنهما لا يختلطان.

والتقطت بعض مناديل الكلينيكس والتفتت إلى المـرآة ومـسحت تحـت عينيهـا مـرتين أو ثلاثًا.

قلتُ لها وأنا أتنفس بعمق:

- هيا إنهم ينتظروننا.

كان هناك أمام جناح "ليلى" من يتـصورون ومـن يتكلمـون، وعنـدما خرجنـا مـن البـاب، توقف الجميع وركزوا أنظارهم علينا ثم بدؤوا في التصفيق، وتعالت أصواتهم:

- آه، يا أحلى عروسة!

- اللـه يحميكي يا أحلى "ليلى".

- ألف ألف مبروك.

وتم التقاط الصور مع العروس وأهل "رامي" ومعنا كلنا في مجموعات.

قالت عمتي:

- هيا، يجب أن ندخل، الناس ينتظرون.

ودفعت بنات عمي وقريبات "رامي" تجاه قاعة الاحتفال، ثم أكملت:

- "باسل"، حبيبي، خذ "ليلى" وعمك سيتقدم، و"عمر" خلفك ثم "رامـي" وأبـوه وإخوتـه، يالَّا يالّا.

أمسكت "ليلى" بذراعي وهي تضحك، وكنـت أشـعر بـضربات قلبهـا التـي تـزداد سرعـة، وتنفست مرتين بعمق وأخفضت بصرها إلى الأرض، وكانت ابتسامتها رقيقة.

انتظمنا في الترتيـب الـصحيح بـسرعة وانفـتح بـاب القاعـة التـي أصـبحت أنوارهـا أكـثر سـطوعًا، وتعالـت أصـوات الزغاريـد المختلطـة بـدق الطبـول والضجيج والتصفيق. دخلنا في ترتيب إلى المسرح وراء بعـضنا الـبعض، ورأيـت أمامي بحرًا من وجوه السيدات المزينة بالمكياج. وبعـضهن وضـعن العبـاءات

والحجاب وقتًا قصيرًا حتى يخرج الرجال، وبعضهن ترقصن على المسرح وكأنهن في حفل لموسيقى البوب.

ازداد ارتفاع صوت الموسيقى، ورأيت كرسيين ذهبيين لهما ظهر عالٍ قد تم وضعهما على المسرح، وعليهما قوس من الورود الحمراء وسلاسل الأضواء. أشار لي عمي "خالد" أن أُجلِس "ليلى" على أحدهما، فسحبت يدها من يدي وانزلقت يدها اليسرى برفق من يدي اليمنى حتى تشابكت أصابعنا، وفكرت أنها ستكون المرة الأخيرة التي أفعل فيها ذلك فشبكت أصابعي بين أصابعها بقوة لثانيتين.

جلس "رامي" على الكرسي بجوار "ليلى" ونظر لي مبتسمًا. وقفنا جميعًا بجانب العروسين وأدت الفرقة الموسيقية رتمًا أعلى وغنت المغنية "مبروك يا أم العروس"، وبدأت "سحر" وعمتي ترقصان، حيث تؤديان حركات رشيقة باليد وتستديران مع الموسيقى وتصفقان مع النساء الأخريات في القاعة اللاتي غنت بعضهن مع المغنية وبعضهن قدمن إلى المسرح للرقص.

أشار عمي ووالد "رامي" للفرقة الموسيقية بالتوقف قليلًا، وأخرج والد "رامي" علبة خاتم الزواج من جيب المشلاح، وأمسك عمي "خالد" الميكروفون من المغنية وقال أحد الأدعية وقرأ الفاتحة ثم أعطى "رامي" و"ليلى" الخواتم التي أخذاها سريعًا من يده.

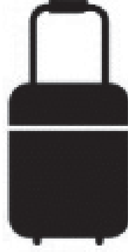
أطلقت النساء الزغاريد مجددًا وبدأت الموسيقى، وقام "رامي" من الكرسي وأمسك بيد "ليلى" وقبلها، فبدا على وجه "ليلى" علامات الابتهاج.

كان يجب علينا نحن الرجال أن نغادر القاعة، فاصطحبني "عمـر" خلـف عمـي و"رامـي" خارج المسرح ثم إلى خارج القاعة. نظرتُ خلفي مجـددًا فوجـدت "لـيلى" بـين مجموعـة مـن الفتيات بعضهن تضحك وبعضهن تبكي. كانت "ليلى" تقف مع واحدة من أصغر بنات عمـي، ورأيت بطرف عيني أنها خلعت حذاءها وبدأت في الرقص.

هأنا أودع ذكريـات الـصيف والطفولـة والواقـع الجديـد الـذي نحـن فيـه – أنـا وهـي - وسينتهي ذلك الوقت، سينتهي وينشأ واقع جديد يرسـمه "لـيلى" و"رامـي". وأصـبحت أنـا في خانة الذكريات التي تخطر على البال بين الحين والآخر.



المغادرة



كان ينبغي لـ"عمر" أن يوصلني إلى المطار قبل الظهر، وقبلها قدم إلينا الأقارب وتمنوا لي رحلة سعيدة وأعطوني هدايا لي ولـ"باربرا"، توابل ومخبوزات ومكسرات وجلابيتين وشبشبًا جديدًا.

كان الإجهاد ما زال يبدو على عمي "خالد"، إلا أنه يطلب من "ماري" شيئًا من المطبخ كل خمس دقائق، ويشرب الشاي ويُشغل التليفزيون ويُغلقه مجددًا ويسأل عن سائق السيارة وعن أوراق سفري هل هي جاهزة أم لا.

وتولت عمتي "بسمة" ترتيب الشنط، ولم تسمح لي أن أساعدها في أي شيء، حيث رصت ملابسي على السرير.

وقالت لي:

- حبيبي، الرجال لا يجيدون فعل ذلك، اذهب واجلس مع عمك.

اتصلت "ليلى" من المطار، حيث خرجت هي و"رامي" مباشرة من حفل الزفاف إلى قضاء شهر العسل في ماليزيا وبعدها في المالديف.

سألتها:

- هل كانت رحلتكما جيدة؟

فقالت:

- طويلة، ولا أستطيع أن أتذكر شيئًا، حيث يوجد أناس كثيرون، كيف كان الأمر عندكم؟

فقلت لها وأنا أبتسم:

- لقد ذهبنا إلى "عمر"، ولعبنا "البلاي ستيشن"، وفي الساعة الثالثة ذهبتُ إلى السرير واستغرقت في النوم كالطوبة، تخيلي لو حكيت لأحد أن العُرس هنا نلعب بعده ألعاب الفيديو.

فضحكت "ليلى" وسمعت من خلفها الإذاعة الداخلية للمطار.

قالت لي:

- أتمنى لك رحلة سعيدة، وسأنتظر زيارتك لنا، فعندما نعود سيكون بيتنا قد انتهى وسيكون لدينا مكان لك.

قلتُ:

- أم أنكِ ستأتين إلينا؟

فقالت:

- بالتأكيد، سنفعل ذلك قريبًا، يجب أن تتعرف "باربرا" إلى "رامي" سواء أرادت ذلك أم لا، ربما يكون ذلك في الكريسماس.

كانت "ليلى" تتحدث بصيغة "نحن" وهو ما جعلني أشعر بتعب الأيام السابقة. كنت أجلس بجوار عمي "خالد" على مخدات غرفة المعيشة وأعيش جو الضجيج في البيت للمرة الأخيرة.

أرسلت لي "باربرا" رسالة قصيرة للمرة الأولى منذ أن تركتها، تقول:

"سأكون في انتظارك في المطار".

بالطبع تشعر بالفضول.

قالت لي عمتي وهي تحتضني للمرة العاشرة:

- يجب أن تعود قريبًا، سنفتقدك كثيرًا.

وجاء "عمر" وأخواته مع أسرهم، ووقفنا في الفناء نودع بعضنا البعض. وأحاطتني المشاعر نفسها التي تلقيتُها في اليوم الأول، فالنساء تبكي وتُحمِّلني بالسلامات لأمي وتقلن:

- نأسف لأنها لم تأتِ، لقد افتقدناها معنا هنا.

بدأت أجرُّ شنطتي على الأرض، وقال لي "عمر":

- يالَّا، علينا أن نذهب.

احتضنني عمي "خالد" بقوة مدة طويلة وقال:

- لا تغب عنا طويلًا.

وضع "عمر" الشُّنط في السيارة "اللاند روفر"، وقال:

- هل معك كل شيء؟ جواز السفر، والتذكرة، والتليفون؟

فقلتُ:

- نعم، كل شيء.

قال "موسى" وهو يلوح:

- مع السلامة يا باشا.

فقال "عمر" ضاحكًا:

- يالّا، نجوت، ألم تشعر في الأسبوع الأخير أن الموت قريب منك؟

فضحكتُ وقلت:

- نعم، هذا صحيح، أعتقد أنني سأفتقد جميع من هنا.

فقال "عمر":

- وأنا أيضًا سأفتقدك يا أخي، بلغ أمك أن "ليلى" بخير، إننا نعتني بها، لا تقلق.

انعطف "عمر" في طريق الكورنيش المزدحم وسار بمحاذاة البحر، وقال:

- بدءًا من الغد، ستواجه البرد مجددًا، استمتع بالدفء يا حبيبي.

سطعت الشمس فوقنا، وكانت الساعة قبل الثانية عشرة بقليل، وممشى الشاطئ شبه خالٍ إلا من بعض الشباب الجالسين على السور الصغير يشربون الشاي أو يدخنون، والبحر يلمع وأمامنا ظهر الميناء بالممر الخشبي الخاص به.



كان أبي يُحضِرنا هنا للصيد، وغالبًا ما يكون ذلك يوم الجمعة بعد الصلاة، حيث نجلس على الممر لساعات طوال ممسكين بالصنارات الطويلة، وننتظر حتى تقوم سمكة بابتلاع الطُّعم، وكانت "ليلى" أقل مني صبرًا، فبعد نصف ساعة، تعطي أبي الصنارة وتبحث عن أطفال لتلعب معهم. فنقف أنا وأبي

بجوار بعضنا البعض ممسكين بالصنارات وننظر إلى السفن. وكان يعلمني كيفية معرفة مكان إقلاع السفينة ووجهتها، فيقول:

- انظر إلى الأعلام التي ترفرف هناك، أحدها يشير إلى الميناء الذي انطلقت منه والآخر يشير إلى المقصد.

وكانت "ليلى" تقفز بمحاذاة الممر مع الفتيات الأخريات وتجمعن الطوب وتلقينه في البحر. وأحيانًا تأتي "باربرا" معنا إلى الممر، وتتكئ على الدرابزين بجوار أبي تراقب "ليلى" وتنبهها بعدم اللعب بعيدًا عنا. ولكنني أتذكر أنها كانت تبتسم دائمًا، وتشتري لنا غزل البنات، ومكسرات مملحة لأبي. وكان الباعة الباكستانيون يحيونها على لغتها العربية الضعيفة، فتجاملهم "باربرا" بالضحك. وفي مكان ما على الممشى، يوجد مَن يعزف الموسيقى ويطبل ويغني لـ"فيروز". كانت تلك الأيام جميلة. وعندما تغرب الشمس، نذهب إلى سوق السمك بجانب الميناء، فتمسكني "ليلى" من يدي وتسير بي خلال سوق السمك وتبحث عن السمك والجمبري الطازج للعشاء.

وكانت تضحك كثيرًا وتأخذ الصدف من الصيادين، ولم يكن من بين الصيادين من لا يحب تلك الفتاة ذات الخصلات السوداء، فيقولون لأبي:

- والله يا دكتور، مبروك على أولادك، ابنتك جميلة ولديها وجه مُبتسم، الله يحميها ويحمي عائلتها، ويكتب لكم السعادة الدائمة.

كلمة شكر المؤلفة

أشكر عائلتي على كل ما قدموه لي، وبخاصة أنهم سمحوا لي أن أكون مختلفةً عنهم – "آنّا" و"حسن خياط"، "ماجد خياط"، "إيفا تيلين"، "ليزا تيلين"، "أنّاليزا شليجل"، "عبد الله خياط"، "عائشة قربان"، وباقي العائلة:

إلى عائلتي العزيزة؛ شكرًا من القلب؛ الله يحميكم ويخليكم لي.

أشكر "ميريام هولشتاين" التي لولاها ما كُتب سطر واحد ولم يكن ليكتمل هذا الكتاب. أنتِ أعظم شيء في حياتي، وصاحبة الفضل في هذا الكتاب.

أشكر "سيباستيان بلوم" و"أنّا ديبينبوش" و"ناتاليا بوترر" على مساعدتهم وتفهمهم لي، وعلى كل الوفاء والدعم الذي قدموه لي بشكل منقطع النظير.

كما أشكر من أعماق قلبي:

مؤسسة "kunst:raum sylt quelle"، "شتيفاني إريك كايدتل"، "أولجا جريازنوفا"، "رودي نوفوتني"، "أنّا أوتّو"، "أنّا تيمان"، "كريستيانا تيمان"، "كاترين تيشندورف"، "بيتر فافيرتسينك"، "يان فالك".

صدر من سلسلة كتب مختلفة:

.1	أرامل الخميس	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.2	اسمي نور	إلسا أوسوريو	الأرجنتين
.3	كلي لك	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.4	بيتي بو	كلاوديا بينيرو	الأرجنتين
.5	مشروع روزي	جرايم سيمسيون	أستراليا
.6	لأننا في مكان آخر	رشا الخيَّاط	ألمانيا
.7	قصص بسيطة	إنجو شولتز	ألمانيا
.8	الثلاثة	سارة لوتز	إنجلترا
.9	الموت والبطريق	أندريه كيركوف	أوكرانيا
.10	تاتي	كريستين دوير هيكي	أيرلندا
.11	شركة الحب المحدودة	أندريه سنار ماجنسون	أيسلندا
.12	موسم الساحرة	أرني ثورارينسون	أيسلندا
.13	الحب لم يعد مناسبًا	ميلا فينتوريني	إيطاليا
.14	احترس من جوعي	لوتشانا كاستيلينا	إيطاليا
.15	سارق الجثث	باتريسيا ميلو	البرازيل
.16	السيمفونية البيضاء	أدريانا ليسبوا	البرازيل
.17	نيزك في جالفايش	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.18	مقبرة البيانو	جوزيه لويس بايشوتو	البرتغال
.19	صانع الملائكة	شتيفان بريجش	بلجيكا
.20	فندق الغرباء	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
.21	مخاوفي السبعة	سلافيدين أفيدتش	البوسنة
.22	جامع الكتب	جوستابو فابيرون باترياو	بيرو
.23	أبسنت	أيفر تونش	تركيا
.24	أحلام محطمة	بيولانت سينوكاك	تركيا
.25	ارحل قبل أن أنهار	تونا كيرميتشي	تركيا
.26	امرأة صديقي	تونا كيرميتشي	تركيا
.27	توباز	هاكان جنيد	تركيا
.28	خطايا الأبرياء	برهان سونميز	تركيا
.29	ديستينا	ماين كيركانات	تركيا
.30	الشيطان امرأة	هاندي ألتايلي	تركيا

31. الصلوات تبقى واحدة	تونا كيرميتشي	تركيا
32. جريمة في البوسفور	أسمهان أيكول	تركيا
33. لون الغواية	هاندي ألتايلي	تركيا
34. مينتا	سولماز كاموران	تركيا
35. نساء إسطنبول	مجموعة قصصية	تركيا
36. الحب في إسطنبول، الموت في بابل	إسكندر بالا	تركيا
37. حدث في كراكوف	بيترا هولوفا	التشيك
38. حُفِظت القضية	باتريك أورشانديك	التشيك
39. ديتوكس	سوزانا برابتسوفا	التشيك
40. سرادق طائر البطريق	إميل هاكل	التشيك
41. كافكا	فرانز كافكا	التشيك
42. المواطن فانيك	فاتسلاف هافل	التشيك
43. جرائم براج	ميلوس أوربان	التشيك
44. المبعدون	أوجنين سباهيتش	الجبل الأسود
45. العقل المدبر	دافيد أوجنر	جواتيمالا
46. امرأة للبيع	أورشولا كوفاليك	سلوفاكيا
47. خلف طاحونة الجبل	مجموعة قصصية	سلوفاكيا
48. ربيع البربر	يوناس لوشر	سويسرا
49. كرافت	يوناس لوشر	سويسرا
50. الحياة هنا	ميرال قريشي	سويسرا
51. بكين.. بكين	شيو تسي تشين	الصين
52. رحلة انتقام	جوو دا شين	الصين
53. سبع ليالٍ في حدائق الورد	يي مِاي	الصين
54. النجمة الحمراء	يركسي هولمانبيك	الصين
55. رقصة الكاهنة	جين رن شون	الصين
56. بنات الصين	يي مِاي	الصين
57. الربع الأخير من القمر	تشيه زيه جيان	الصين
58. المغفل	إريك نويوف	فرنسا
59. المجاعة البيضاء	آكي أوليكانين	فنلندا
60. النسيان	إيكتور آباد	كولومبيا
61. القنّاص	بلايز ماينفسكي	مقدونيا
62. الواحد والعشرون	توميسلاف عثمانلي	مقدونيا

63. صانع الزجاج	إيرميس لافازوناوفسكي	مقدونيا
64. إلينج	إنجفار أمبيورنسون	النرويج
65. صيف بارد جدًّا	روي ياكوبسن	النرويج
66. دكان الساري	روبا باجوا	الهند
67. جوي سبيدبوت	تومي فيرينيجا	هولندا
68. العشاء	هيرمان كوخ	هولندا
69. المنزل الصيفي	هيرمان كوخ	هولندا

صدر من كتب عامّة:

70. الرجل والمرأة أيهما الجنس الأضعف؟	جيرالد هوتر	ألمانيا
71. قانون التسامح	هوبرتس هوفمان	ألمانيا
72. هاربون من الموت	فولفجانج باور	ألمانيا
73. الهاشميون وحلم العرب	روبرت ماكنمارا	أمريكا
74. الهندي الأحمر الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا
75. يوميات صحفية إيطالية	جوفانا لوكاتيلي	إيطاليا
76. خيالات الشرق	إيسا دي كيروش	البرتغال
77. ضد الانتخابات	دافيد فان ريبروك	بلجيكا
78. أوروبيانا	باتريك أورشادنيك	التشيك
79. قوة المستضعفين	فاتسلاف هافل	التشيك
80. النشوة المادية	جي. إم. لو كلوزيو	فرنسا
81. لن أمنحكم كراهيتي	أنطوان لاريس	فرنسا
82. جابو	أوسكار بانتوخا	كولومبيا
83. الجري	ثور جوتاس	النرويج
84. عقول مريضة	دوي درايسما	هولندا
85. اللعب مع الكبار	يوريس ليونديك	هولندا

يصدر قريبًا: من سلسلة كتب مختلفة:

86. النقطة صفر	ناريك ماليان	أرمينيا
87. وداعًا أيُّها الطائر	أرام باتشيان	أرمينيا
88. أحلامًا سعيدة يا صغيري	كاسيمو جارميليني	إيطاليا
89. القادم متأخرًا	ديميتري فيرهولست	بلجيكا
90. ثلاثة على الطريق	تونا كيرميتشي	تركيا
91. ورشة الشيطان	جاتشيم توبول	التشيك
92. خريطة آنا	مارك سينديلكا	التشيك
93. الألفية في بلجراد	فلاديمير بيستالو	الصرب
94. دجاج مشوي	صوفي هيناف	فرنسا
95. التطهر	صوفي أوسكانين	فنلندا
96. لم يبقَ أحد	أندريس فورجاتش	المجر
97. هذه هي الأسماء	تومي فيرينيجا	هولندا

يصدر قريبًا:

من سلسلة كتب عامّة:

98. بوكو حرام	فولفجانج باور	ألمانيا
99. القرصان الأيسلندي	جون جنار	أيسلندا

#كتب_مختلفة #ألمانيا





"لأننا في مكان آخر" رواية تصور من خلالها المؤلفة رشا خياط صراع الثقافات الذي يحدث. تحكي عن قصة "ليلى" و"باسل"، شقيقين من أب عربي وأم ألمانية، يتقاسمان ما عاشته المؤلفة بالفعل من معاناة في حياتها في الغربة وهي من أصل عربي. تقرر "ليلى" فجأة أن تغادر ألمانيا وترحل إلى موطن أبيها في السعودية. ثم تفاجئ أخاها "باسل" وأمها بصدمة أكبر بأن تدعوهما ليحضرا حفل زفافها من شاب سعودي، وخاصة بعد أن يسافر "باسل" إليها في السعودية ويجد مدى التغير الفكري الذي طرأ عليها. وفي الوقت نفسه، عندما يقابل "باسل" عائلة أبيه، يشتاق لأيام طفولته التي قضاها في السعودية معهم. تطرح الكاتبة "رشا خياط" عدة تساؤلات معقدة عن انقسام الأسر بسبب الهوية متعددة الجنسيات من الشرق والغرب. هل ينبغي أن تطغي ثقافة بلد على ثقافة البلد الأخرى أم من الأفضل أن نوفِّق بينهما؟ إنها رواية عن صراعات المجتمع الثقافية.



رشا خياط

كاتبة ألمانية سعودية حرة. وُلدت في دورتموند ونشأت في جدة. عندما بلغت أحد عشر عامًا، انتقلت مع عائلتها للعيش في ألمانيا. درست علوم الأدب المقارن والأدب الألماني والفلسفة في "جامعة بون". تعيش في "هامبورج" منذ عام 2005 وتفرغت للكتابة وترجمة الأدب والتدريس بعد أن تدربت في قسم التحرير في دار "روفولت" للنشر. في عام 2010، أصبحت عضوة بمؤسسة "يورجن بونتو" لدعم الفنون والشباب. وتكتب منذ عام 2016 في جامعة شرق أنجليا في نورويتش بريطانيا. ترجمت العديد من الأعمال الأدبية مثل "ما زال نائمًا" و"الملكة الراقصة" و"الحب الأبدي". "لأننا في مكان آخر" هي روايتها الأولى التي نشرتها في عام 2016، ورشحت لجائزة "كلاوس ميشيل كونيه" لأفضل رواية.



60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg

ISBN 978-977-319-394-2





WWW.alarabipublishing.com.eg

تصميم الغلاف : آلاء هيكل